رواية

محمود عبد الغني

في الصيف والخريف فقط

معجم طنجة 2

المتوسط

مكتبة نوميديا 107
Telegram@ Numidia_Library

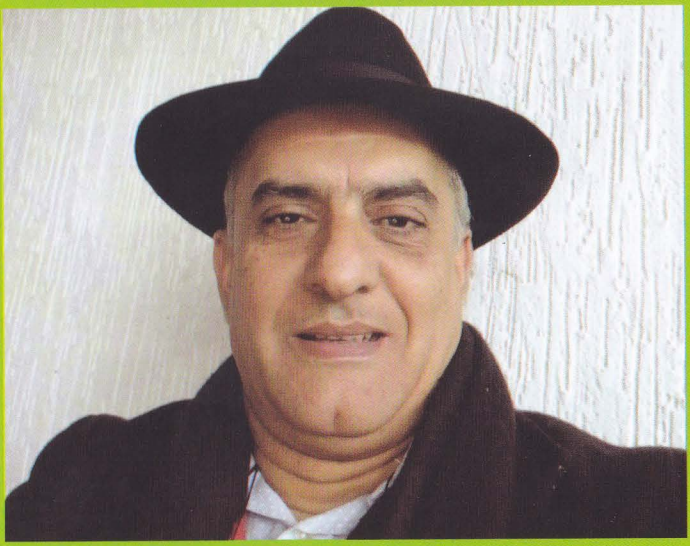

محمود عبد الغني: من مواليد مدينة خريبكة في المغرب عام ١٩٦٧، شاعر وروائي مترجم وباحث. يعمل أستاذا للأدب الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

صدرت له العديد من المجموعات الشعرية، وفي الرواية صدرت له «الهدية الأخيرة» عن المركز الثقافي العربي عام ٢٠١٢، والتي حازت على جائزة المغرب في السرد عام ٢٠١٣. ثم رواية «أكتب إليك من دمشق» عن دار العين ٢٠١٦. ورواية «معجم طنجة» عن المتوسط ٢٠١٧.

كما وصدرت له العديد من الدراسات البحثية والنقدية. إضافة إلى ترجمته لعديد من الكتب بين الدراسات والشعر والرواية، منها ترجمته لرواية مزرعة الحيوان لجورج أورويل الصادرة عن المركز الثقافي العربي عام ٢٠١٣.

في الصيف
والخريف
فقط

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٩ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار.- تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Fil Saifi wa Al-Kharif Faqat *by* "Mahmoud Abdelghani"
Copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: محمود عبد الغني / عنوان الكتاب: في الصيف والخريف فقط
الطبعة الأولى: ٢٠١٩.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-42-7

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

محمود عبد الغني

في الصيف والخريف فقط

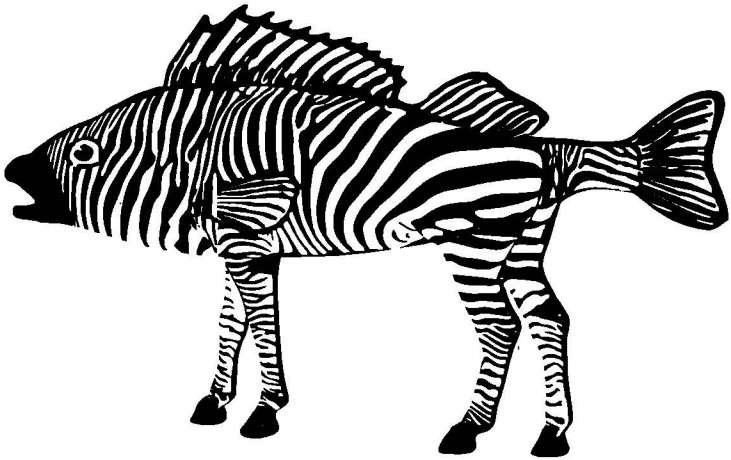

معجم طنجة 2

المتوسط

إلى عبد اللطيف بنيحيى وعزيز التاغي

-I-

"ليس الخسرانُ فنّاً صعبَ الإتقان."

إليزابيث بيشوب

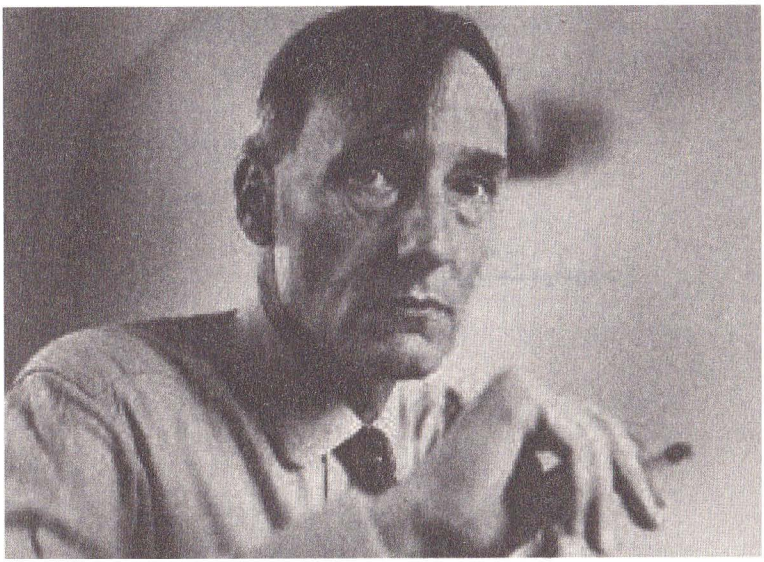

(صورة ويليام بورّوغ)

نعود إلى زمن، لم يكن الناس فيه ينزعجون من تأخّر مواعيد القطارات والسفن. بل لا يستغربون إن رأوا رجلاً يرتدي معطفاً مَطَرِيّاً في الأسابيع الأولى من فصل الصيف، أو نساءً ينتعلنَ صنادل مفتوحة، وهم يسيرون تحت المطر. كان الناس في ذلك الزمن يفكّرون في أشياء قليلة مرتبطة بروزنامة الفصول. كانت العواصف الثّلجيّة تنهال، مثل زمننا هذا، على البلدات والمُدُن في أيّ وقت شاءت دون احترام لقانون تعاقُب الفصول أو لخصائص فصل الشتاء. في ذلك الزمن، مثل اليوم كأن شيئاً لم يتغيّر، كان زجاج نوافذ القطارات والسفن متّسخاً، ما يجعلكَ تتساءل عن دور عمّال التنظيف الذين يملؤون الممرّات جيئة وذهاباً. يتّسخ الزجاج بماء المطر الذي يهطل غزيراً، أو بالثلج السّيبيريّ الذي يصطدم بالزجاج مثل كرات من الوحل. كل شخص يعتقد أن قريبه أو جاره في القرية قد مات من البرد، ولن يتأكّد من نجاته إلا حين يظهر خارجاً من بيته بعد توقّف العواصف وإطلالة ضوء شمس خائف، بعد أسابيع متتالية من الاختباء داخل بيوت، فيها قليل من خشب التدفئة.

لقد تذكّرتُ تلك السنوات حين استمعتُ للنشرات التّحذيريّة بعدم ذهاب الأطفال إلى المدارس والتُّجار والمزارعين إلى الأسواق، فالطُّرُق مغلقة، والأشجار تسقط بفعل قوّة الرياح، فتسدّ الطُّرُقات والمسالك. بقي فقط أن يعلن التلفزيون تجمُّد ميّاه البحار والمحيطات، وامتناع السفن

عن الإبحار، وتعذّر انطلاق القطارات من محطّاتها. في مثل هذه الأوضاع، يعود الناس إلى مطابخهم، من أجل تهييء أكلات، تُنعِش الجَسَدَ، حساء أو أعشاباً مطبوخة وممزوجة جيّداً بالخضر أو القمح أو الأرزّ أو الخبز اليابس. تلك المطابخ القروية تُنتج أفضل الأطعمة والأَحْسِيَة التي تقاوم البرد، وتُنعِش الأجساد. رغم أن لا أحد يعرف بالضبط ما يُنعِش الجَسَدَ فعلاً، فيكون كل حساء وكل طعام هو نموذج تجريبي، ينبغي تناوُله كما لو أنه النموذج النّهائيّ.

في يوم بارد وعاصف، تجمّدت فيه العصافير فوق أشجارها، أبحرت سفينة يونانية من ميناء روما. شعر المسافرون بالجوع، وبدؤوا يستعدّون لأكل أيّ شيء يُقدَّم لهم، لكنهم وجدوا شُعَيرات طويلة في شرائح اللحم، ورأوا الأوساخ في الكؤوس، الأطباق تُثير الغثيان، المراحيض مُلوَّثة، الأكل فاسد، الخدمات منعدمة ... هذه هي السفينة التي أبحر على متنها ويليام بورّوغ طيلة اثنَي عشر يوماً نحو طنجة. كان يوم أحد، اجتاحت عاصفة هائجة مفاجئة البحر الأبيض المتوسّط، فأخافت القادمين كلهم من روما ومن جنوب شرق أوربا المتوجّهين إلى شمال إفريقيا. ممّا اضطرّ ويليام إلى إخراج معطف جديد من حقيبته، وارتدائه مكان الأوّل الأقلّ دفئاً، وقُفّازَيْن، وقبّعة لها نجاعة استثنائية في مواجهة البرد والمطر. مَنْ يراه على تلك الهيئة يعتقد أنه سيخرج الآن إلى سطح السفينة، ويواجه بصدره الريح القوية والمطر الغزير كما يفعل أبطال الأفلام الضائعون على الجزر المهجورة. لكنْ، في داخله، كان يحمل أمل أن يتغيّر الطقس، أن يتبدّل كل شيء فجأة كما حدث فجأة. إن هذه خصيصة من خصائص الأمريكيّيْن، فهم يؤمنون بحدوث التّغيّرات المتعاقبة والمفاجِئة دون حاجة إلى مقدّمات، ممّا يجعلهم مسالمين في مسألة التّشبّث بالوضع الجديد، لأنه هو ما يؤدّي إلى وضع آخر، وهكذا. إن الوضع الجديد، مهما كان سيِّئاً، فهو

يحمل في داخله بذرة وضع جيّد. الأمريكيون جاؤوا من جهات العالم كلها، لكنهم حين جاؤوا من الشرق حملوا معهم هذه الفلسفة الجيّدة والنافعة.

كل مَنْ رأى أو قرأ أو سمع بوليام بورّوغ اهتمّ بأمره. وإن يهمّكم أمره أنتم أيضاً ستتلهّفون لمعرفة تاريخ ومكان ولادته، وأسرته، ومستواه الدّراسيّ، ورحلاته، وأصدقائه، والمطاعم السّيّئة التي ارتادها وصرخ في وجه مُسيِّرها، وهو يرمي شريحة اللحم الفاسد التي قدّمها له. وفي حقيقة الأمر، فإن اللحم جيّد، زوّد به المطعم أحد كبار الجزّارين، لكن حالة السُّكْر المتقدّم تجعل ويليام دائما يُقدِّر سيِّئاً ما يُقدَّم له من طعام أو شراب. لكنْ، رغم ذلك فقد ظلّ يعدّ تلك اللحظات من أجمل لحظات وجوده. وذلك بفضل قُرن يوجد في عقله، يطبخ فيه أفكاره وقراراته كلها، حتّى المنفلتة منها. كما أن هناك الكثير من الأفكار يطلقها هكذا في الهواء، لا يستطيع هو نفسه فَهْمها، لكنه متأكّد بأن الفَهْم حاصل حين يتلقّفها الآخرون.

هناك مَنْ سيهتمّ بهذه الجوانب كلها، وهناك مَنْ سيكتفي بجانب واحد فقط. لكن تقديم جانب واحد يُعدّ عيباً من عيوب السَّرْد. لذلك فأنا مُلزَم بتقديم إحاطة.

بحث ويليام في روما عن صديق أمريكي، فلم يجده، فهو لا يتوفّر على عنوانه. كانت بحوزته رسائل كثيرة، فيها عناوين، لكنه فضّل البحث عن صديقه هذا الذي اسمه آنسن. مجيئه إلى طنجة هو، في الأصل، توجّه لاشعوري نحو إفريقيا. كان مصاباً بنزلة برد حادّة، وما زالت أمامه أربعة أيّام، في أحسن الحالات، نحو جبل طارق. يبدو داخل معطفه مثل قصبة ملفوفة في ثوب أسود. من المستحيل نزع المعطف في روما، أو داخل هذه السفينة الرديئة. ورغم قسوة البرد، فإنه لا ينسى أنه استمتع ببعض المقاهي والحانات، يذكر منها مقهى "رومو" الذي كرهه في بداية

الأمر، بسبب الفوضى السائدة فيه، واللوحات التي تنمّ عن انعدام موهبة رسّاميها، والشّواذّ الذين يرابطون داخله، والرجال الملتحين الملتصقين بالكراسي شبه المحطّمة وهم يلعبون القمار. لكن النادل الذي يحمل اسماً غريباً: شي شي، كان هو ملاك ذلك المكان، وجوهرة تلك المزبلة. سيعرف فيما بعد أنه ابن صاحب المقهى. لهذه الأسباب كلها ظلّ ويليام يُؤنِّب نفسه بهذا السؤال: لماذا غادرتُ المكسيك؟

وصل إلى طنجة عبر جبل طارق، لم يكن يحمل في جيبه سوى خمسين دولاراً، عليه أن يدّخرها إلى الأوّل من فبراير (شباط). هذا رجل من كبار الأمريكيّيْن الذين أحبّوا أوروبا. لكن الأمر الذي يستغرب إليه الجميع أنه يحمل دوماً أملاً قوياً في العثور على عمل في طنجة أو الدار البيضاء. وهو الأمل نفسه الذي حمله، وهو على أرض المكسيك، البلد الذي حين يغادره، يظلّ يمتدحه كبلد مِثَاليّ، في رسائله التي يبعثها إلى العالم كله. لم يكن يملك شيئاً يقوله لأيّ أحد. أفكاره لا تلتقي مع الناس في أيّ مكان، وكيفما كانت حالته. لهذا السبّب عَدَّهُ النّاس كلّهم الذين التقوا به رجلاً سيِّئاً للغاية. لكنه لم يكن سوى ضحية للفراغات التي كانت تملأ ذهنه، للثقوب التي تُقيم بين الكلمات ومعناها، وحين ينطق بالجُمل، يخرج معناها معكوساً. لذلك تحوّل إلى طبيب نفسه، فتجرّع دواء الصّمت لمدّة طويلة. كان يخاف من الكلمات، وبدأ يعدّها أكثر جبروتاً وبطشاً بقدرته السابقة، حين كان ينطق بإنجليزية، صحيح أنها رخوة، لكنها ممتلئة بالمعاني، ومحبوبة لدى المستمع إليه، وأكبر معانيها الخوف والحذر والعبث. ويليام الخائف. ويليام الحذر. ويليام العابث. حَذِرٌ من كلّ شيء. خائفٌ من كلّ شيء. عابثٌ بكل شيء. هذا الزلزال اللّغويّ الذي جعله مضطرباً طوال الوقت كاد يتسبّب في شجار مع زوج امرأة ألمانية، سمعه وهو يخاطب زوجته على سطح السفينة قائلاً لها: تذكرين يوم قبّلتُكِ أوّل

مرّة؟ وحين علا الصّراخ، وتدخّل الناس لفَضِّ الشجار الوشيك، عاد ويليام إلى حالته الطبيعية، وتذكّر أنه نطق بما لا ينبغي النُّطق به. فالمرأة ألمانية شابّة، ولا يذكر أنه قبّل امرأة ألمانية ذات يوم. ذهب واعتذر للزوج، وقبّل يد زوجته قائلاً إنه ظنّها صديقته الألمانية القديمة، فدعاهما إلى كأس في حانة السفينة، وبقي يتكلّم بسرعة مثل آلة تُصدر ضجيجاً لا يُطاق، فاضطرّ الزوج إلى دَفْع حساب كؤوس الويسكي الثلاث، وانسحبا وكأنهما هاربان من عاصفة. بقي ويليام على الكونتوار يحتسي كؤوساً أخرى، وهو يتأمّل كيف أن أموراً سيّئة يمكن أن تُنتج أموراً جيّدة. تحرُّشه بالشّابّة الألمانية أدّى إلى أن يتكلّف زوجها بأداءِ مبلغ من المال على كؤوس شراب جيّدة الطَّعْم والرّائحة. لو لم يَقُم الزّوج بذلك، لنشب شجارٌ آخر بين نادل الحانة وويليام الذي لم يكن بمقدوره أداء ذلك المبلغ. عندها سيُدرك الزوج الألماني أنه أمام سِكّير محترف، وصعلوك خبيث، تحرّش فعلاً بزوجته، وما ذريعة شبهِها بصديقته القديمة سوى قصّة مُختَلَقَة للإفلات من الورطة.

في الحقيقة لم يذهب الألمانيان خارج الحانة، بل جلسا على طاولة منعزلة، بعيداً عن هذا الرجل الأميركي الذي يعتمر قبّعة، ويرتدي معطفاً أسود، يغطّي قامته الطويلة كلّها من كَتِفَيْه حتّى كاحِلَيْه. استغرب الألماني للإنجليزية الصادرة من فمه مع رائحة السجائر والخمر. لا يُنكِر أنه أُعجب بهذه الإنجليزية اللذيذة التي لم يسمع أمريكياً آخر ينطق بمثلها. جُمَلها لا تكاد تتوقّف، وفيها من الاستعارة أكثر ممّا فيها من الحقيقة. قال الألماني لزوجته: هذا شاعر. التفت ويليام إليهما، كأنه شعر بأنه موضوع حديثهما، ولمّا نظرت إليه الألمانية، ابتسم لها ابتسامة سرّيّة، ورغم ذلك، تمكّن الزوج من ملاحظتها، فتبيّن له بما لا يدع مجالاً للشّكّ أن الأميركي يتحرّش بها.

لا يستطيع أحدٌ من أصدقاء ويليام أن يتذكّر أنه رآه ذات يوم يبتسم.

كما لا يستطيع أن يتذكّر أنه ودّعه ذات يوم بالطريقة التي يُودِّع بها الناسُ أحِبَّتهم. ويليام لا يُكرِّر ما قام به الناس ذات يوم، واعتادوا عليه. بل يمكن القول إنه شخصٌ لا يقول وداعاً أبداً. أقول ذلك بيقين، ليس لحُجّة أملكها، بل لأنني حين أتطلّع إلى الماضي، وحين أُنقِّب في سجلِّه الطّفوليّ، لم أجد الكلمات الرقيقة ترتعش في قلبه. هذا لا يعني أيضاً أنه رجلٌ قاسي القلب، بل لأن رياحاً كثيرة عصفت بهذه العضلة الحمراء القابعة تحت ضلعه الأيسر. كيف لقلب مثل هذا أن يحبّ أميركا؟ حين يغادرها لا يقول وداعاً.

شعر بقَدَمَيْه تُؤلمانه، فانتقل للجلوس على طاولة قريبة من الكونتوار. ظنّ الألماني وزوجته أنه قادم للجلوس معهما، فطارا من مكانهما، وتركا كأسَيْهما ممتلئَتَيْن إلى النصف. لقد أصبح هو سيّد الحانة الأوّل. الحانة فارغة الآن. ظهرت وراء الكونتوار شابّة صينية، عوّضت الرجل العبوس الذي قدّم لهم الشراب قبل نصف ساعة. الصّينيّات صيده المثالي. طيّبات، ويقرضنَ الأموال بسهولة. مباشرة بعد مغادرة الألمانيَّيْن، نهض وجلس على مقعده في الكونتوار، وهو يبتسم للصّينيّة. كيف فعلها وابتسم بتلك الطريقة المفتعلة؟ فعل كلَّ شيء من أجل استمالتها، لكنه خسر في النهاية.

جالَ ببصره في المطعم الصغير الذي يتكوّن من قاعة واحدة فقط، مربّعة، وتنفتح على حُجُرات صغيرة بدون أبواب، لمح درجاً يؤدّي إلى طابق فوقي صغير، هو الآخر، ويظهر أنه شديد الحرارة. ارتقى الدّرج بصعوبة، لأن رِجلَيْه الطويلتَيْن لم تُسعفاه في الصعود. أطلّ برأسه، فرأى شخصَيْن يجلسان في هذا الفُرن، ويُدخّنان، أحدهما مبتور اليد اليمنى، يضع قبّعة وسيجارته في فمه. سمّاه في سرّه "بليز"، لأنه يشبه الشاعر الفرنسي بليز

ساندرار، مبتور اليد هو الآخر، والذي كان يُدخّن كما يُدخّن هذا الشخص تماماً. بدأ ويليام ينزلق من درجة إلى درجة بصعوبة، حتّى لامست قَدَمَاه الأرضية، فعاد إلى الكونتوار مرّة أخرى. كاد يسقط من فوق الكرسي، حاولت الصّينيّة الإمساك بيده، لكنه تمسّك بالحاجز الخشبي، ثمّ انتصب واقفاً، فلاحظت قامته الطويلة والنحيفة، فتراجعت بعد أن أدركت أنه لا يمكن أن يسقط، لأنه وهو جالسٌ على الكرسي قَدَمَاه على الأرض أصلاً.

عاد من جديد، وبدأ يفكّر في جنسية هذه الشّابّة، لا شكّ أنها يابانية، اليابانيون بخلاء. أو قد تكون كورية، الكوريات يتعاطينَ الخمور بكثرة. لا يهمّ ما هي جنسيّتها الآن، المهمّ أن يحسب ما في جيبه من مال، ليشرب كأساً أخرى. فجأة سألتْهُ:

- من أيّ بلد أنتَ؟

أجابها بسرعة:

- أنا كاتب صيني.

أجابتْهُ وهي تضحك:

- غير ممكن.

- لماذا؟

- ألا ترى شكلَكَ؟

وضع أصبَعَيْه على جانبَي عينَيْه، وجذبهما، بحيث أصبحتا تشبهان عيون الصّينيّيْن:

- تريدينني هكذا؟ أنا صيني، إذنْ. هههه.

- ماذا تأكل، أيّها الكاتب الصّينيّ؟

- بطّ بكين. هههههه.

رفع كأسه، وشربها كاملة. قامت الصّينيّة، وصبّت كأساً أخرى، وقالت:

- هذه من عندي، أيّها الصّينيّ المزيّف.

- هاتِ تلك القنّينة التي تشبه البطّة، وضعيها بجانبي، وتعالي نشرب نخب تعارُفنا اليوم.

- ما اسمكَ؟

- ويليام بوروغ، يا قلبي. وأنتِ؟

شعرت الفتاة، في كلامه، بوجود كلمات الأغاني القديمة وقصائد الشعراء الجوّالين الذين كانوا يغنّون قصائدهم على قيثارة مُرهفة الألحان.

- أنا اسمي لي يوي تشن.

- اسم جميل، وسطٌ بين الأسماء القديمة والجديدة، أنتِ قنطرة. "يوي" يعني ياقوت، و" تشن" هو الياقوت. يعني "الياقوت القَيِّم".

- لكنني قنطرةٌ ضعيفة، يا سيّدي.

- صينية وضعيفة؟ ياقوتة قَيِّمة وضعيفة؟ غير ممكن، عزيزتي. بين الكلمات تنافرٌ كبيرٌ. لماذا أنتِ حزينة هكذا؟ هل من داعٍ للحزن؟

- ألا تحزن أنتَ؟

- أحياناً. لكن حزني من النوع الجيّد.

- حزن جيّد! هههههه لأوّل مرّة أسمع هذا التعبير! وماذا تفعل حين تكون حزيناً بشكل جيّد؟

- أغادر أميركا بسرعة.

- تغادرها إلى أين؟ ما هو فردوسكَ؟

- الصحيح القول: ما هي فراديسي؟ إلى أيّ بلد آخر.

- من أيّ بلد أنتَ قادمٌ الآن؟

- من إيطاليا. وقبلها كنتُ في المكسيك.

- ومتوجّهٌ إلى إفريقيا؟

- نعم، إلى طنجة.

- طنجة .. أسمع بها كثيراً.

فكّرت الفتاة الصّينيّة في المسار الذي قطعه هذا الرجل الغريب الذي أمامها: المكسيك، إيطاليا، طنجة. هل هو هاربٌ من شيء يطارده حيثما حلّ؟ شعرت أن هذا سؤالاً جيّداً ينبغي أن تطرحه، وتتلقّى عنه جواباً. أضافت كأساً أخرى. وقف ويليام بسعادة، وقال:

- غير ممكن. هذا كثير. ليس معي من المال لأداء هذه الكؤوس كلها.

تراجعت يوي تشن إلى الوراء، وجلبت القنّينة الشبيهة بالبطّة، ووضعتها أمامه.

- خذ، أيّها الأميركي، هذه كلها لكَ.

عاد وجلس من جديد، وهو يخلع قبّعته، ويضعها أمامه.

نزل الرجل الأبتر، صاحب اليد اليُسرى، هو وصديقه من الطابق الأوّل، وجلسا على الكونتوار، بالقرب من ويليام. اقتربتْ منهما يوي تشن، طلب الأبتر كأس ويسكي، أمّا صديقه، فطلب زجاجة بيرة. بقي ويليام ينقر بيده على خشب الكونتوار، كما يفعل نقّار الخشب بالخشب.

ارتفعت درجة الحرارة. بدأ ويليام يتصبّب عَرَقاً. تجرّع الأبتر كأسه كاملة دفعة واحدة. عادت يوي تشن، وصبّت له كأساً أخرى. أدركت أنها أمام سِكّير محترف. كاد ويليام يُحدِث حُفرة في خشب الكونتوار، لشدّة ما نَقَر بظُفْرِه. يظهر من مظهر الرجلَيْن أنهما جابا أقطاراً بعيدة. خاطب الأبتر يوي تشن بالصّينيّة، شعرت بسعادة وهي تردّ عليه. مدّ يده اليُسرى ليصافحها، أمّا هي، فقد تأخّرت قليلاً في مدِّ يَدَيْها. الصّينيّون هكذا لا يمدّون أيديهم للمصافحة بسرعة كما يفعل الأمريكيون أو العرب. لمّا اقتربت يوي أكثر من ويليام لتنظيف سطح الكونتوار، لاحظ على خَدَّيْها آثاراً خفيفة للجدري. لاحظت يوي أن أفكاره تسرح أمامها على الخشب، فلامست خَدَّها الأيمن بأصبعها، وبقيت تلمس حفرة صغيرة غير ظاهرة بما يكفي.

عندما تطلّع إلى الماضي، لم يجد أنه اهتمّ مرّة بامرأة كما اهتمّ اليوم بـ "يوي تشن". وعندما تطلّعت هي إلى ماضيها لم تجد أنها اهتمّت يوماً بزبون كما تهتمّ الآن بويليام. لم يكن لها يوماً ما تقوله للرجال الغرباء الذين يعبرون فضاءها. وقد اندهشت كيف أن ويليام كان مستعدّاً بشكل غريب للحديث معها، بل وللبوح لها بأسرار حياته كاملة، منذ ولادته إلى اللحظة التي يقف فيها أمامها. وجدت نفسها تطرح سؤالاً، لا يُطرَح أبداً في اللقاء الأوّل:

- أين ومتى وُلدتَ، يا سيّد ويليام؟

حين سمع السؤال اخترقتْه شِعْرِيَّة خاصّة من النوع التي يُستعان بها لمراوغة هذا الاختبار الصّعب. من مثل:" أنا ويليام بوروغ، وُلدتُ في قاعة الضيوف، من بيت صغير. كانت أُمّي جالسة على كرسي من الخشب الأسود المنقوش حين فاجأها مخاض ولادتي. الكرسي ثقيل يشبه الكراسي الموجودة في الصين، والتي عادة ما كانت تُوضَع تحت صورة الإمبراطور. كانت أُمّي ترتدي ثوباً من السّاتان الأبيض المزيّن بورود صغيرة وبارزة على الثوب. غابت عن الوعي ما يقرب النصف ساعة، وحين عاد وعيها، وجدت إلى جانبها على السرير طفلاً نحيفاً. وحين سألوها: ماذا ستُسمّينه؟ نطقت دون تفكير: ويليام. يا إلهي، إن الكرسي الذي أجلس عليه شبيه بالكرسي الذي كانت تجلس عليه أُمّي حين فاجأها مخاض ولادتي. أسود وثقيل. هل هذه استعارة على أنني أُولَدُ أمامكَ ولادة ثانية، يا يوي تشين؟ لم تكن والدتي من النوع الذي يحبّ الهدايا، أو لنقل إنها كانت تحبّها، ولكنها لم تكن تنتظرها من أحد. فَمَنْ يزورها دون أن يحمل أيّ هدية هو إنسان طيّب، ومَنْ يزورها وهو يحمل هدية هو إنسان جيّد. كانت امرأة حكيمة، وتتميّز بطاقة صبر هائلة. رائحتها دائماً كانت طيّبة، وطبخها دوماً لذيذ. في إيطاليا، رأيتُ نساءً كثيرات يشبهنها. كانت شديدة البياض ونحيفة. كان كافياً أن تنظر إليّ، لأفهم كلّ شيء من حولي. كنتُ أُسمّيها "امرأة الميم". لا تحتاج إلى الكلام لتقول ما تريد قوله، فقط حركة أو اثنتان تكفيان."

كان ويليام يحكي وهو يُحلِّق فوق غيمة. لم ينتبه للأبتر بليز ولصديقه الصامت. لم يكونا يُصغيان لشاعريته المتدفّقة. كانا يخوضان في حديث ساخن. الأبتر يَكْرَعُ الكأس تِلوَ الآخر وصديقه يُنصِت ويُدخّن ويميل برأسه مُوافِقاً أو مُتّفقاً. نوع من النّفاق الظاهر. وأحياناً يبدأ الأبتر يغنّي وهو

يتراقص ببطء، حينها يقرّب صديقه يده من المنفضة، ويطفئ سيجارته. موسيقى بلوز منسابة وخافتة. لا يكاد يُسمَع منها سوى صوت الطّبل والساكسوفون، وصوت يشبه ذاك الذي يُحدِثُهُ كعب الحذاء. المغنّي يضع إيقاعاً ذاتيّاً إضافيّاً بواسطة حذائه. عاد ويليام يَنقُر بإصبعه على الخشب، في انسجام مع صوت الكعب الخافت. ويوي تشين تنتظر تتمّة تدفّق الشِّعْرِيَّة النادرة التي أبان عنها ويليام، وجعلتها تصدّق أنه شاعر كبير، يحكي ذكرياته على مَتْن سفينتها. تسارعت ضربات الطبل، وعلا صوت الساكسوفون إعلاناً عن نهاية الأُغنيّة. فجأة توقّف كل شيء، وبدأت أُغنيّة جديدة بجمل طويلة وبطيئة.

- ماذا أيضاً، يا سيّد ويليام؟

سألتْهُ يوي تشين وهي تنظر إلى عينَيْه، وتبتسم. صَبَّ ويليام لنفسه كأساً أخرى، وأضاف:

- "إنّي أشعر وكأنّني أتحدّث في مسألة عويصة: حياتي. أَضِفْ إلى ذلك أنني أحكيها أمام سيّدة أجنبية، لها جناحان. ههه. هل تعرفين كاتبة أميركية اسمها "بيرل باك"؟ كتبت قصّة عنوانها "أجنحة النساء"، وهي مستوحاة من حياتها في الصين. كانت تُدرِّس في جامعة "نانكين". سأعطيكِ روايتها "الأرض الطّيّبة" لتقرئيها، إن شئتِ. أنا أقرؤها الآن في أثناء رحلتي هذه، لم يبقَ سوى فصل واحد لإنهائها. إني الآن أرى جناحَيْك.".

شرب جرعة من كأسه، ثمّ عاد من الشِّعْر إلى النَّثْر:

- "أنا من مواليد ٢٥/٤/ ١٩١٤ بمدينة سان لويس، بمحافظة ميسوري. لم تتركني أُمّي يوماً لمُرضعة، تتولّى شؤوني. كانت تخرج لقضاء بعض الأعمال، ثمّ تعود في الحال إلى ويليام الذي يكون قد تبوّل على نفسه،

فتُنظّفه، وتُغيِّر ملابسه. لم أعرف الوَسَخ يوماً. درست في مدرسة قريبة من البيت. وكان لنحافتي الفضل في النجاح في العديد من الأمور. تساعدني دوماً في التّسلّل إلى عمق الأشياء بيُسرٍ كبير. حتّى ركلاتي كانت ناجحة، حين أُوجّهها للكرة أو للأطفال. لم يَهْفُ قلبي إلى أُمّي مثل اليوم."

التقت عينا ويليام ويوي تشين دون خجل. من عادته خَفْضُ بصره حين تنظر إليه امرأة، لكنْ، عينا يوي ساحرتان، فيهما شمسٌ، أقمارٌ. اجتمع فيهما ضوء، لا يستطيع إطلاق أيِّ اسم عليه. ضوء يراه لأوّل مرّة في عينَي امرأة. ثمّ تابع:

- "حين رأيتُ أُمّي آخر مرّة كانت مريضة، ولكن إرادتها قويّة. أصدرت لي أمراً بأن أعود إلى البيت. فحقّقت رغبتها، ولم أغادر البيت، تاركاً حقائبي في غُرفة مغلقة بنُزُل بعيد. وحين عدت إلى النُّزُل وجدتُ السّيّد "والت"، صاحب النُّزُل، قد أمر بإخراج حقائبي، ووضعها في مخزن خاصّ بالأشياء المَنسيّة من طرف الزّبناء. لم يفعل ذلك فقط، بل قام بغَسْلها وكَيّها وتعطيرها حتّى لا تتأثّر بالرطوبة القوية. وضعها داخل دولاب نظيف، وكتب عليها: أشياء صديقي الكاتب العظيم ويليام بوروغ. قدّمت له مبلغاً مقابل تلك الخدمة فرفض استلامه، بل وتجنّب مطالبتي بإيجار شهرَيْن، ذلك أنني عدتُ إلى النزل بعد أن أسلمتْ أُمّي الروح. قدّم لي عزاءً حارّاً، وكادت عيناه تدمعان من شدّة التّأثّر، لأنه هو الآخر فَقَدَ والدته في السنة نفسها، في حادثة سير. يتيمان لا يعرفان كيف يُعزِّيان بعضهما. قلتُ له: تعال، يا والت، لننسَ هذه الهموم، الحياةُ مليئةٌ بالفجائع. وضع رأسه على كَتِفي، وبكى. ولأني كنتُ أطول قامة منه، فقد طبع دموعه على قميصي في جهة القلب تحديداً. كان والت سميناً وقصيراً، وكان يُفضِّل تناوُل الشراب معي، وكنتُ أناديه "كرة الشحم"، ويُلقِّبني "عصا البيزبول". وفي لحظات

انتشائنا، كنتُ أضربه بيدي، وحين يحتجّ أقول: شيء طبيعي أن تضرب العصا الكرة. فنضحك بصوت مرتفع حتّى نُفرِغ جوفَيْنا من كمّيّة الضحك المحبوسة داخلنا. اشتقتُ إلى والت كثيراً. انقطعت عنّي أخباره. الآن سأكتب رسالة لصديقي الشاعر "ألان غينزبورغ"، ليُزوِّدني بأخباره، وليبلّغه سلامي أيضاً. لا شكّ أن والت يتطلّع إلى أخباري. كان يقول لي دوماً: ابعثْ لي أخبارَكَ مع الريح من أيّ بلدٍ، يا ويليام، يا صديقي الرائع. وتأكّد بأنها ستصلني، وتجدني في المكان المناسب بانتظارها على الشواطئ."

- حَدِّثْني عن والدكَ، سيّد ويليام، لو سمحتَ طبعاً.

تراجع ويليام إلى الوراء، ووضع قبّعتَهُ فوق رأسه. نزل من فوق الكرسي، ثمّ انتصب ومشى ببطء، وهو يلتفت يميناً وشمالاً. ثمّ عاد إلى مقعده، وتابع محدِّثاً يوي تشين:

- " هكذا كان والدي يمشي. مشية الرجال الأمريكيّيْن في مرحلته. كان يلاعبني كما يفعل الأطفال في سنّي تماماً. يُصدر أصواتهم، ويقوم بحركاتهم في أثناء اللّعب. لكنه لم يكن بحكمة والدتي. كان سريع الغضب، ولأتفهِ الأسباب. إنّي أتذكّره دوماً كما أعهده. كان والدي يا يوي رجلاً كاملاً. كان بقامة والدتي نفسها. كان يحبّ نساءً كثيراتٍ. كان أسرع حركة من الرجال الذين عرفتُهم جميعهم. كان وجهه بيضاوياً، وحاجباه شيّدا السواد فوق عينَيْه. كان حين يرى جارنا السِّكِّير جيمس بشَعْرِه المُشَعّث يقول له مداعباً: يا جيمس، اعتنِ بنفسِكَ، إن شَعْرَكَ يبدو كَشَعْر الكلاب. كان جيمس يتحدّر من أسرة عريقة. وكان ذلك ينعكس في حركاته وأقواله وردود فعله. كان يبلع إهانات والدي، فيعود من حيث أتى تجنّباً لأيِّ شِجارٍ معه. وكان والدي يردِّد دوماً إن جيمس أعزّ شخص عنده في الحَيّ كلّه. وقد كانت والدتي تنصحه دوماً بعدم التّفوّه بذلك أبداً، خصوصاً وأن

حال جيمس يدعو إلى الشفقة. فهو رجل يعيش وحيداً بعد طلاقه من زوجته، وأَخْذها الأولاد معها، لتعيش في مدينة نيويورك رفقة رجل ثريّ، كان يعمل في المحاماة. ومن يومها، لم يستطع جيمس عيش أيّامه ولياليه دون بُكاء وسُكْر."

توقّف ويليام عن الكلام، ونظر إلى يوي، وسألها وهو يقهقه عالياً:

- ماذا يوجد في شرابكِ، يا يوي تشين، عُشْبة البوح المتدفّق؟

وضعت يوي يدها على يده اليُمنى التي كان ينقر بها خشب الكونتوار في محاولة لطمأنته، فمن كلامه عن والده التقطت مسألة الغضب السريع، الذي بدون شكّ سيكون طبعاً مُتوارَثاً لدى آل بوروغ. بعد ذلك، أمسكت يده، وضغطت عليها بشدّة. كم كان ذلك مُربِكاً لويليام! نزع قبّعته، وأعادها إلى مكانها قرب مرفق يده. ناولته منديلاً، ليمسح العَرَقَ على جبينه. التفت الأبتر إليهما، وكأنه شعر بما يجري بينهما من تقارب. سقط رمادُ سيجارته التي في فمه على معطفه. أمّا صديقه الصامت، فقد تشاغل بصَبِّ آخر قطرة من البيرة في جوفه. بدا ويليام مثل موج غير مُستقرٍّ، يدفع نفسه باستمرار نحو الشاطئ البعيد، فيجد نفسه، في النهاية، ينزل إلى الرّمل الذي في القاع.

لتحويل انتباه ويليام، قالت يوي:

- لا تُضِفْ شيئاً، يا سيّد ويليام. نحن الصّينيّون لا نستمع لحكاية متكلّم غير مُبالٍ، أو حين لا يكون سعيداً.

أراد ويليام أن يتّخذ وضعية مُتكلّم سعيد، لكنه لم يعرف كيف، فاكتفى بالإطراق وتحريك أصابع يَدَيْه العشرة، كأنه يعزف على قيثارة حزينة:

- كلا، يا يوي، يا قلبي، لستُ لا مبالياً ولا حزيناً. والآن دعي أصابعك تداعب أوتار قيثارتي، كي تعزف لحناً سعيداً.

استعمل ويليام استعارةَ القيثارة، لأنه يعرف تقاليد الحبّ الفريدة عند الصّينيّيْن. وهو بذلك يشير إلى قواعد كثيرة في هذا المجال، لا شكّ أن يوي تشين الذكية ستلتقط إحداها. تحوّل الأبتر إلى مستمعٍ غير مُبالٍ لما يجري حوله. بقي ويليام يفكّر في أُغنيّة تُعزَف على قيثارة حزينة، يهديها لها. سمع الأبتر أفكاره برَفْع صوته بأُغنيّة، تُغنّى في الغرب الأميركي، اندهش ويليام وجاراه في الغناء بصوت مرتفع، وبوضوح أكثر في الكلمات، وبحزن أكبر في المشاعر. بقيت يوي وصديق الأبتر يستمعان بسعادة كبيرة إلى أُغنيّة الحبّ التي تروي عن الأوراق الذابلة التي تسقط وتتناثر، فتُفرّقها الريح في الاتّجاهات كلها دون رحمة.

رفع الأبتر نظرَهُ نحو ويليام وحيّاه، ربمّا على أدائه الأُغنيّة بشكل جيّد، وعلى حفظه كلماتها الرائعة كاملة. لأن الأبتر توقّف في لحظة عن الغناء، فيما استمرّ ويليام رافعاً صوته الأجشّ مثل فنّان محترف. بادله ويليام التّحيّة نفسها، وقال إنه لم يُغنِّ هذه الأُغنيّة منذ ثلاثين سنة. والآن أتتْهُ كلماتها ولحنها في طراوة كاملة، كأنه حفظها هذا الصباح.

رفع ويليام رأسه نحو يوي، بدت له جميلة ومُشرقة وطيّبة القلب. قال لها كلمات وداعٍ قليلة، وبصوت خافت:

- سأذهب إلى غرفتي، أراكِ في المساء.

ثمّ انصرف دون أن يبقى حتّى يستمع لما ستقوله له، وبأيّ الكلمات ستودّعه أو تُرحّب به. أمّا هي، فبقيت تراقبه وهو يمشي متمايلاً مثل قَصَبَة تحرّكها الرياح، كأنها تحرّكها على إيقاع الأُغنيّة الحزينة التي غنّاها قبل قليل.

ساد الصمت، وبقي الأبتر يدخّن، وهو مستغرق في التفكير. التفتت إليه يوي بعينَيْن مفتوحَتَيْن، ركَّز على ذراعَيْها العاريَتَيْن. ثمّ طلب كأساً أخرى له، وبيرة لصديقه. عادت يوي لتجلس على مقعدها المصنوع من خشب سميك، ربّما هو الخشب نفسه الذي صُنعت منه هذه السفينة.

ويليام شخصٌ لا تتوقّف رغباته، ولو ثانية واحدة، ولم يفارقه مسدّسه يوماً واحداً. إذنْ، ليس صعباً استنتاج أن هذا الشخص يحبُّ الحياة حبّاً جنونيّاً. لقد كان من الأوائل الذين كرهوا أميركا. فحين يبتعد عنها يحنّ إليها، فيعود أدراجه، لكنه يغادرها من جديد عادّاً أن الرحيل عنها هو الوسيلة الوحيدة لتصحيح خطئه الشنيع، والتّوجّه نحو "فريسكو" بالتكساس، أو الرحيل من جديد إلى طنجة بالمغرب. في أميركا هو شخص عاجز، لا يستطيع فعل شيء، باستثناء مدينة واحدة هي نيويورك التي لا يعدّها مدينة أميركية، فهي مكان استثنائي، ومنطقة دفاع مثالية من أجل البقاء. ويليام هو أوّل مَنْ صرخ في كل مكان: نيويورك هي أرض نجاتي، والوحيد الذي كان يأخذ صرخته بجدّيّة هو صديقه ألان غينزبورغ، والرسائل التي سيبعثها إليه من طنجة مليئة بهذه الصرخة.

كيف تصرخ؟ كيف تقول وداعاً؟ ذلك هو الدَّرْس الذي لم يعتقد ويليام أنه سيتعلّمه ذات يوم.

***

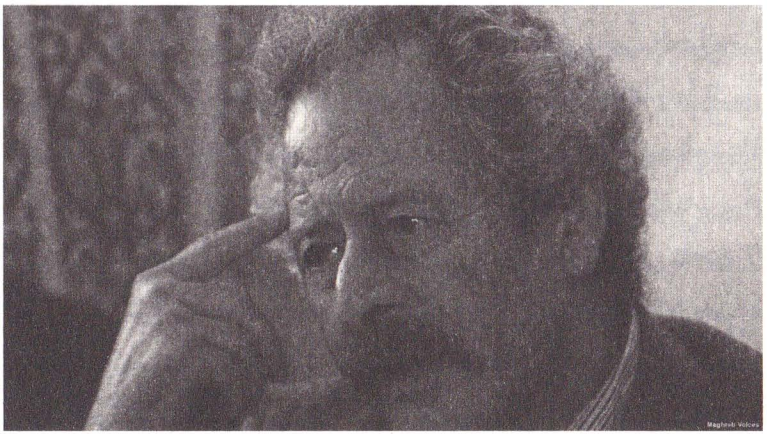
Maghreb Voices

صورة محمّد شكري

كفّ شكري، تدريجياً، عن معاملة بول بولز كما لو أنه رئيسه في العمل. فبعد موت جين بولز، بدأت علامات جديدة، ومختلفة كُلِّيَّاً عن العلامات السابقة، تدلّ على تعامل جديد وخيارات جديدة مختلفة عن القديمة. بدأ شكري يحمّل بولز مسؤولية موت جين. بدأ شكري يبحث عن نصوصه، ولم يعد يرافق سوى بوغالب، ساعي البريد، وزمرة من الأمريكيّيْن الذين لا يحبّون شيئاً في الحياة مثل حُبّهم للسُّكْر، لذلك كان شكري يُسمّيهم "الناجون". كما كان دوماً يجد تفسيراً لملامحهم الغريبة التي لا تشبه ملامح الأمريكيّيْن في الأفلام، ومن تلك الأسباب كونهم ينامون بالنهار، ويعيشون بالليل. حتّى إنجليزيّتهم تغيّرت، فأصبحت تشبه إنجليزية مَنْ له أب إنجليزي وأُمّ إيطالية، مثل "جينيت" صاحبة بار "شهرزاد" في مراكش، التي كان شكري يزورها كلّما ذهب إلى مراكش، وهو أمر نادراً ما يقوم به، فيجد "جينيت" جالسة على الكونتوار، وكأنها تنتظره بعد أخذها علم بقدومه.

بدأ الروتين ذاته يعود. أصبحت طنجة ملاذاً لغير المرغوب فيهم. عصابة الكُتّاب الأمريكيّيْن. في أحد الأيّام، ذهب شكري إلى الشاطئ، وبدأ ينادي: جين بولز ... ثمّ حذف الاسم الأخير، وصرخ: جين آور. ثمّ عاد إلى حانة قرب مركز البريد معتزّاً بحفنة نقود في جيبه. كله شوق لرؤية الأشخاص الذين يبدؤون في ضرب بعضهم بعد نصف يوم من الشرب. وفي النصف الثاني، يخرجون خصياتهم من سراويلهم، ويُظهرونها للناس. في

ذلك اليوم كان شكري محظوظاً، دخل الحانةَ رجلٌ يعمل محامياً بطنجة. دخل محبطاً، وأغلق الباب وراءه قبل أن يقوم الحارس بفتحه. كان يتدلّى من سترته شريط ورق الحمّام، الشيء الذي يعني أنه قادم من حانة مجاورة. لكنْ، رغم ذلك شيء ما مميّزٌ فيه: ساقاه الطويلتان. جلس جنب شكري، وتبادلا الحديث لما يقرب عشر دقائق، ثمّ نهض المحامي وهو يضع مبلغاً من المال في يده.

بقي شكري في زاوية معتمة، يراقب رجلاً سكراناً، يُظهِر خصيَتَيْه إلى عاهرة، تجلس قرب باب المرحاض. تلك وظيفتُها مدى الحياة، لذلك فشكري يعطف عليها. لم تكن تعرف ما الذي عليها فعله أمام هذا السِّكِّير الذي يردّد حركته السّيّئة التي أثارت حفيظة الموجودين كلهم في البار. هؤلاء كلهم مكانهم هي الحانة الوسخة تحت الأرض. لا عمر لهم. يبدون في أيّ عمر. فجأة اقترب أحدهم من شكري:

- مرحباً سي محمّد، أريد الحديث معكَ. لقد حان وقت التّعرّف على بعضنا.

في تلك اللحظة، دخل عبد اللطيف إلى الحانة، وجال بعينَيْه بحثاً عن صاحبه. حتّى وجده في الركن المعتم. جلس على الكرسي المقابل له. ليس ذلك مكانه المعتاد. أشار شكري للشخص الراغب في الحديث معه بأن ينسحب الآن، ليتحدّثا في وقت لاحق. يحمل عبد اللطيف مُغلَّفاً كبير الحجم. وهو عبارة عن مخطوط كتاب جديد، قرأه بطلب من شكري. التفت شكري حين سمع صوتاً على يساره. فرأى وجه شابّة شديدة السُّمرة. عشرون يوماً، هذا هو الزمن الذي استغرقه عبد اللطيف في قراءة المخطوط. سعلت الفتاة الشديدة السمرة بقوّة. التفت إليها شكري، ودعاها للجلوس جنبه. قفزت من مقعدها، كأنها كانت تنتظر

دعوته. قبّلتْه، ومدّت يَدَيْها لعبد اللطيف. مدّت يدها إلى علبة السجائر، لتأخذ سيجارة، منعها شكري:

- بدأ النّهب من الآن؟ ضحك وهو ينظر إلى عبد اللطيف. هيّا، عودي إلى مكانكِ، يا ابنة العاهرة، اجلسي على ذلك المقعد الصدئ الذي كان يثقب مؤخّرتكِ قبل قليل.

نهضت وهي تشتم، فمدّ إليها أحد الواقفين في الكونتوار سيجارة من علبته. الكل كان يراقب ما يحدث. التفت إليه شكري، وشتمه:

- هي زوجتكَ أم أختكَ، يا قوّاد؟ أعطِها مؤخّرتكَ، لتشعل بها السيجارة، وحين تنتهي من تدخينها كاملة، مدّها لها لتُطفِئها في ثقبكَ.

التفت شكري إلى عبد اللطيف:

- لم أرَ في حياتي مثل هؤلاء البشر. دعكَ من الافتراضات الأخلاقية، تعامل مع الواقع، ولن تجد سوى الأساليب الغريبة. يا إلهي، هل اختفى الناس الموهوبون؟

استمرّ شكري يشتم. أخرج سيجارة، وأشعلها. لم يعد بالإمكان رؤية وجهه بفعل موجة الدخان التي أحاطت به. التدخين عند شكري مثل القتال. يتذكّر عبد اللطيف أنه قال له ذات يوم إن التدخين غيَّر من طريقة سَيْره. لم يبدُ أنه فَهِمَ ما قاله. التدخين غيَّر من مشيته، والشراب غيَّر من طريقة كلامه وضحكته. الكثير من الأشياء تتغيّر، إن لم يكن التدخين أو الشرب وراءها، فثمّة أشياء كثيرة. ذلك ليس فنّاً صعب الإتقان.

فاجأه عبد اللطيف بهذه الملاحظة:

- أنتَ تخسر كل شيء يوميّاً. رَوِّضْ نفسَكَ التي اعتادت على الخسران.

- ماذا أخسر مثلاً؟ أعطني القائمة.

- قبل يومَيْن، خسرتَ ساعة ثمينة. أضعتَ هالة ثمينة، أضعتَ ما هو أجسم.

- ما هو هذا الـ "أجسم"، يا بابا. لم أنتبه أن ثمّة كارثة حلّت بي!

- لا أعرف بالضبط ما هو سي محمّد. خزانتكَ تفرغ كل يوم من أشيائها.

- إنها أشيائي، وليست أشياء الخزانة. أترى كيف تُمِلُّك شيئاً لي لخزانة من خشب؟ هههههه.

استمرّ شكري يحفر في كلام عبد اللطيف، لكنْ، لم تكن هناك فائدة تُرجَى من ذلك. الكثير من الأشياء حدثت بعد ذلك. سقطت الفتاة من فوق الكرسي، تبوّل سِكِّير على حذائه، تحطّمت مائدة مجاورة لمائدة شكري، وفي كثير من الأحيان، كان يشتم ويركل برجله رغم عدم وجود أيّ أحد حوله. ناوله عيد اللطيف المخطوط، وانصرف مباشرة نحو مبنى إذاعة طنجة، حيث يعمل، تاركاً وراءه صديقه حافي القَدَمَيْن، ويقوم بحركات بهلوانية.

بقي المخطوط، وعنوانه "زمن الأخطاء"، هادئاً على المائدة، بلَّلَتْهُ قطرات النبيذ الأحمر من الأسفل. ونظرت إليه العيون الحمراء المتواجدة كلها في الحانة. نظر إليه بالخصوص الرجل الخمسيني الواقف في الرُّكن، كان يمثّل بحركته أنه يقطع أُذُنه اليسرى، فخطرت على شكري تسميته "فان غوغ"، وبالفعل فقد كان أيّام شبابه رسّاماً يعيش مع حبيبة مجنونة تُوفِّيت قبل خمس سنوات، ويُعرف بشَغَفَه المدرسي عند مَنْ درسوا معه. ورغم

معرفته لشكري منذ سنين، فإنه لا يجرؤ على الاقتراب من مائدته. يمكنه البقاء في طنجة مائة سنة دون مغادرتها. هي مكانه المطلق، كأنه مخزن تحت الأرض، لا يؤدّي إلى مكان آخر، مليء بثروات غير مرئية لأحد. ظلّ ينظر إلى شكري، إلى أن مرّر إليه صاحب الحانة زجاجة نبيذ، وأشار بإصبعه إلى شكري الذي أهداها له. دون أن ينظر إليه، التفت نحو الزجاجة، ابتسم، وصبّ كأساً، ورفعه نحو الأعلى وهو ينظر إليه، وشربه دفعة واحدة. وبقي يشرب ناسياً شكري وهديته الجميلة، بل شعر كأنها صعدت وحدها من قبو الخمور، واستقرّت أمامه في هذا اليوم الماطر والشديد البرودة.

انسحب شكري ونسي المخطوط.

***

"أنتَ، يا شكري، تبدو رائعاً بهذه البيريه، وربطة العنق."

قال صاحب سيّارة الأجرة لشكري الذي كان مبتسماً، حليق الوجه وقوي النظرات.

"خذني إلى البيت." قال وصمت. اختفى كل شيء من أمامه. لم يعد يسمع حتّى محرّك السّيّارة، ولا ضجّة الشارع المزدحم. لم يعرف حتّى الاتّجاه، اختفى، تبخّر، لكنه يثق في السائق الذي، في النهاية، رفض أن يأخذ منه المال.

قبل أن يسقط المطر نظر شكري إلى نفسه، وانتبه إلى أنه يرتدي ملابس الربيع، قميصاً مزركشاً وحذاءً صيفياً بنّيًّاً دون جوارب. حدس بهطول الأمطار حتّى دون أن ينظر إلى السماء. تذكّر أنه نسي المخطوط في الحانة. حين وصل إلى البيت، ترك الباب مفتوحاً، وتوجّه مباشرة إلى الهاتف، واتّصل

بالعربي النادل الذي أخبره أنه يحتفظ بالمخطوط في دُرجه. لم تكن في ذهن شكري غير فكرة واحدة: كيف يُقنع العربي أن يأتي بالمخطوط حين ينتهي من العمل؟ فالعربي حين يقرّر أن يكون فاعلاً لا يتردّد. عاد شكري، واتّصل بالحانة، وسأل عن بوغالب ساعي البريد، فأخبره العربي بأنه موجود رفقة شخص يكرهه شكري، ويسمّيه الجبان. طلب من العربي أن يعطي المخطوط لبوغالب، كي يوصله إلى البيت، سينتظره حتّى العاشرة ليلاً.

حين أخبر العربي بوغالب بطلب شكري، رآه الجميع يأخذ المخطوط ويركض نحو الخارج. ركض إلى الرصيف الآخر، وبدا كأنه يحلّق بعيداً عن الأرض. إنها فرصة أخرى ليزور شكري في بيته، وتكون مناسبة لاستعارة بعض الكُتُب. منذ مدّة، بدأ ساعي البريد الشّابّ المولع بالكُتُب يقرأ بالإسبانية. وهذه المرّة سيأخذ من شكري رواية إسبانية، يرشّحها لقراءتها. وقف جنب بيت غريب، يسمّيه تينيسي ويليامز "بيت الأشباح"، لأن نوافذه الخشبية الزرقاء لا تُفتح أبداً، كلّما جاء إلى طنجة يجدها على حالها مغلقة، مع أنه بيت تقيم فيه أسرة طنجية، ورثته أباً عن جدّ. تطلّ من خلف سوره كرمات عنب، عدّها ثلاث. السياج الحديدي الذي على الرصيف وظيفته منع السّيّارات من الوقوف أو الرّكن. إذنْ، هناك من يحرس البيت الغريب من بعيد. لكنْ، لا شكّ أنه بيت فارغ من مظاهر الحياة الإنسانية الطبيعية. وقد قيل إن سبب ذلك يعود إلى كون أغلب أفراد الأسرة المقيمة معاقين، يعانون من تشوّهات مخيفة، ولا يستطيعون الظهور للناس. أمام هذا البيت المخيف والغامض، وقف بوغالب ينتظر سيّارة أجرة، تُوصِله إلى بيت شكري.

بدأ المطر ينهمر بقوّة، اختفى فتيةٌ كانوا يلعبون الكرة في زقاق قريب من الشارع. هزّ بوغالب رأسه إلى السماء، كأنّه تلقّى إشارة من هناك.

ثمّ التفت إلى بيت الأشباح، فحضرته معلومة أخرى مرعبة: في العام الماضي، شاع خبر انتحار فتاة بداخله، لكنْ، لم يرَ أيّ أحد خروج الجثّة أو دخول الشرطة. كيف حدث الأمر؟ لا أحد يعلم بالأمر غير الله. الكثيرون تحدّثوا عن معرفتهم بالفتاة المنتحرة، وأنها كانت تذهب إلى الشاطئ تسبح وتعود. وهناك من قال إنها كانت تملك درّاجة هوائية، تقودها بسرعة، وأن لا أحد من الفتيان كان يستطيع اللحاق بها. عاد بوغالب، وركّز نظراته على سيّارة أجرة. كانت تفوح منه رائحة خمر خفيفة. فكّ حزام سرواله، رفعه إلى فوق قليلاً، وشدّه أكثر. الإشارة الأولى بيده كانت ناجحة، توقفت سيّارة أجرة، تفاجأ بها، فتراجع إلى الخلف. فتح السائق الباب، فصعد بوغالب، وهو يتأكّد من وجود المخطوط في يده. حدّق فيه السائق، وهو ينتظر أن يقول له وجهته. انطلقت السّيّارة والسائق ينتظر، فيما بوغالب ينظر عبر النافذة إلى غزارة المطر، ويستمع إلى صوت ارتطامه بحديد السّيّارة. وحين سأله السائق أجاب على الفور: طريق تولستوي، أمام ثانوية "رونيو". كان برنامجه لهذا اليوم الذهاب إلى مكتبة صغيرة، اسمها "الأعمدة الأربعة" في البوليفار، أسفل عمارة من أعرق البنايات في مركز المدينة. مكتبة راقية تملكها فرنسية حين تتكلّم بشأن الكُتُب والإصدارات الجديدة، يشعر المستمع إلى حديثها أنها تعرف كل شيء عن الثقافة الفرنسية. تكون وحدها في المكتبة، في غالب الأحيان، لكنها تقوم بأشياء كثيرة، بما في ذلك الصعود على سلّم إلى الرفوف العُليا لترتيب الكُتُب أو إعادة تصنيفها، أو أخذها لوضعها في الواجهة الزجاجية، من أجل بعث الروح فيها. إن شئتُم الاختصار، هذا المكان الصغير، الذي يبدو من بعيد مجرّد باب في جدار، تتحوّل فيه المشاعر من الأسوأ إلى الأحسن. وذلك ما ظلّ بوغالب ينشده دوماً عندما يدخله، ومثله شكري وعبد اللطيف. بدأ يُهيِّئ ما يجب قوله لشكري، وما لا يجب قوله.

الآن بوغالب مستعدّ للّقاء، لن يطلب منه سيجارة مارلبورو أو وينستون، لأنه سيعطيه سيجارة "أولمبيك الزرقاء". لن يلمس السمك بيده، إن وجده على المائدة جنب زجاجة ويسكي. شكري يكره لمس السمك بأصابعه، خصوصاً سمك "أربيان"، هذا إن وجد شيئاً من ذلك، فشكري يشرب ولا يأكل. ولن يذكر أمامه أبداً اسم تينيسي وليامز، الذي أصبح مؤخراً صديقاً حميماً لمحمّد المرابط. وإن تصرّف أو تحدّث بعكس ذلك فسيطرده دون تردّد. فجأة طرأت له فكرة: ماذا لو شرب كأساً في حانة "نيكريسكو" قبل طَرْق بابه؟ بل ويمكنه شرب كأس أخرى في "راديو بار" وأخرى في "ريتز" أو في "خوانا دي أركو" ... جولة صغيرة على السلسلة، ثمّ يصعد وهو في منتصف الانتشاء. فشكري سيقدّم له كأساً بدون شكّ، لكن بوغالب يريدها أن تكون كأس النشوة الجميلة. تساعده على استعمال جمل مختلفة في كل مرّة، وليس تلك الكلمات والجمل المعتادة. الكؤوس الكثيرة تساعده على تنويع كلامه ورقشه بما قرأه من شِعْر وقصص، وهو أمر يروق لشكري كثيراً. يقرأ بوغالب في الفترة الأخيرة تشارلز بوكوفسكي، خصوصاً روايته "موظّف البريد" التي أحالته عليها رواية "نساء" التي ذكر في صفحتها الأولى عمله كموظّف بالبريد، وأنه كان يطمح إلى أن يصبح كاتباً. لكنْ، هناك احتمال لم يخلُ ذهن بوغالب منه، من المحتمل أن يستقبله شكري، ويأخذ منه المخطوط، ويودّعه، يكون الأمر شبيهاً بـ " كان تسليمه عليّ وداعاً" كما قال المتنبّي. وبذلك يكون قد ركل مؤخّرته، كما يحبّ دائماً أن يقول. نظر بوغالب إلى السائق كأنه يريد أن يأمره بالتّوقّف في المنحدر. فَهِمَ السائق، ومال على جانب الطريق، ونظر إلى العدّاد. أخرج بوغالب ورقة مالية، وودّعه بكلمة شُكْر. كان السائق نحيف الجسم، قريباً من هيئة الشبح، ولولا مخاطبته إيّاه لما رآه.

***

كان شكري مُنهمَكاً في الكتابة على الآلة الكاتبة. برنامجه عشر صفحات في اليوم، وعشر كؤوس وعلبة سجائر وطبق سلطة ورائحة سمك لن يأكله. لا يريد أن تمرّ الأيّام خاوية. نظر إلى كتابه "الخبز الحافي" المترجم إلى العديد من اللغات، وخاطبه: "سأقتلكَ، يا ابن القحبة، سأقتلكَ." كانت النسخ مصفوفة جنب بعضها باللغات الفرنسية والإنجليزية واليابانية والإيطالية والألمانية والإسبانية والصّينيّة والهنغارية ... مختلفة الأحجام، كثيرة الألوان، رائعة الأغلفة. مُصطفّة في أوضاع مختلفة، كأنها في ملعب. هذا رجل جالس أمامها، محترف في الشُّرب والتدخين والكتابة والشّتيمة. حكّ ظَهْره، ثمّ صدره، وعاد بيَدَيْه يضرب على الحروف كأنه يعزف، وصوت الآلة يُسمَع قوياً ومتتابعاً. وفي أحيان، يُسمَع صوت شبيه بصوت اصطدام عجلات الطائرة بالأرض. لقد كتب نقط الحذف، أو علامات التّعجّب. رفع رأسه من جديد إلى "الخبز الحافي"، لم يقلْ شيئاً، لكنه كان يردّد في داخله تهديده له: "سأقتلكَ، يا ابن القحبة، سأقتلكَ." أمّا الكتاب، فبقي جامداً. سأله ثانية، فردّدت الترجمات السؤال وراءه: "لماذا تُبقيني في خزانتكَ، أيّها الكاتب؟"

كُتب الشيء الكثير عن كراهية الكُتّاب لكُتُبهم، وشكري لا يعرف إلا النَّزْر اليسير منها. يعرف نسيان بولز لرواياته السابقة، فكان يكره الحديث عنها إلا لمَنْ قرأها كلها، وأحبّها، وطمع في ضوء جديد، يُسلِّطه كاتبها عليها. حالة الغربة هذه كانت تثير حَيْرة شكري. وجدها أيضاً عند تينيسي ويليامز وجان جوني. لكن الحالة تختلف بين الأميركي والفرنسي والمغربي. اختلاف جذري يتطلّب تفسيراً أكثر. رُوِيَتْ حكايات كثيرة، لكنْ، ينبغي رَمْي أغلبها في المزابل. هناك قصص قديمة عن المسيح الذي كتب جملة واحدة في حياته على الرمل، جاءت مياه البحر، ومَحَتْهَا. كان المسيح سعيداً بالمَحْو، لمس المياه بيَدَيْه، وتمتم شيئاً، ربّما كان يباركها، ويوصي

الله بها. نسي جملته الوحيدة، وغادر الشاطئ. ما صحّة هذه الحكاية؟ حتّى ولو لم تكن صحيحة، فإن شكري يصدّقها بقوّة، ثمّ يلتفت لـ "الخبز الحافي"، ويقذفه مرّة أخرى بشتيمة. هل يعلم الكِتاب شيئاً عن هذه الكراهية؟ إنه كتاب "فاسق"، وسيعرف ذات يوم، وسينقلب على كاتبه. كل شيء ممكن، فالكُتُبُ تفعل أشياء كثيرة بكُتّابها. من الضروري التّحدّث ولو بعجالة عن هذا الأمر. هل تريدون التفاصيل؟ إنها غير موجودة. هذا أمرٌ كُلّيّ، ومُغلَق مثل كُتلة، وإذا سقط من مكان مرتفع يُهشِّم الرؤوس والأرجل. مثل أيّ شيء ثقيل وغامض يُسبِّب العذاب. فدعونا منه، لنذكره بعجالة، إذا أردنا أن نسلَم من أذيّته. هذه الكُتلة الثقيلة هي من مُحبّي الأرض. لندعها منخفضة، قريبة من الأرض حتّى لا تحدث الكارثة. تصوّروا رجلاً بريئاً، يسمع عن كاتب يكره كُتُبه، إنه سيلعن الشيطان، ويستعيد بالله فوراً. وفوراً سيختفي من أمامكَ، أنتَ المهرطق، في نظره. يا مثير الزوابع النَّفْسيَّة والفكرية. كاتب يكره كتابه الذي ألّفه بيَدَيْه وعقله؟ ما هذا؟ إنه كلام زائد يصدر عن المرضى والمرتابين. قلْ كلاماً صالحاً أو اصمت. سأصمتُ، إذنْ، بعد قول جملة واحدة: شكري يكره "الخبز الحافي"، وبولز يكره "شاي في الصحراء"، وجوني يكره "أسير عاشق"، وتينيسي يكره "عربة اسمها الرغبة"، وجين بولز، المتوفّاة قبل شهر، تكره "سيّدتان حازمتان"، بل كانت تكره نَثْرها الجميل كله. وكانت تتردّد في رَمْيه في المجاري. إني أراها تنهض من بين الأموات، وتوافق على ما أقوله في حقّها، هي وأصدقاءها الكُتّاب الأمريكيّيْن. عادت إليها لغتها صافية وبليغة، تحيط بها هالة من نور ساطع ومخيف. مَنْ يقدّم لها جبن الماعز يكون في نظرها أعظم إنسان في الكون. سافرت كثيراً، وتناولت وجباتها وشرابها في مطاعم كثيرة، لكنها لم تجد أبداً ألذّ من جُبن الماعز في الجبال التي زارتها، وماتت فيها. قطعة جبن وكأس نبيذ أحمر لذّة ولذّات الدنيا.

طرق بوغالب باب البيت، وبقيَ هادئاً يفكّر في كيفية استقبال شكري له. لو عاد بذاكرته إلى الوراء، سيتذكّر ذات مرّة أطلّ فيها شكري من الباب حين فاجأه ثلاثة أشخاص من الطينة التي يكنّ لها كرهاً شديداً، فشتمهم، لأنهم أتوا بدون موعد، يطرقون بابه مثل اللّصوص، وأعاد إغلاق الباب بقوّة، كادت معها أبواب الجيران أن تُخلَع من مكانها. بقيت تكشيرته وشتائمه محفورة في ذاكرة بوغالب إلى اليوم. في حالة زيارة شكري بدون موعد، وفي الوقت غير المناسب، يتحوّل إلى أسوأ إنسان. فإذا كنتَ تظنّ أن حملك لقنّينة ويسكي وبعض السمك الطّريّ هو جواز سَفَرك إلى مملكته، فأنتَ خاطئ. ذات مرّة زاره شخصٌ يُدعى حسن، وهو يحمل هذه الأشياء، فأدخله شكري وهو يكتم غيظه، وضع حسن ما كان يحمله في يده على مائدة صغيرة، وجلس على أريكة، تتوسّط بهو الدار الصغير، فأمره شكري بجَمْع الصحف من على السرير، ووضعها في أكياس، كان عليه حملها ووضعها في صندوق القمامة أمام باب العمارة. وحين عاد وطَرَقَ الباب ليدخل، رفض شكري فتحه، وبقي حسن يضرب بيده، إلى أن خرج أحد جيران شكري، وطرده، وهو يهدّده مستعملاً أقبح الكلمات وأبشع الشتائم.

منذ أن انتقل شكري من السوق الداخل الذي كان يقيم فيه بفندق "الشاون"، أحدث قطيعة غريبة مع هذا الفضاء الانشطاري الخطير. كان روّاد حانة "خوانا دياركو" في مركز المدينة، وهو المقابل الإسباني لـ "جان دارك"، يستلذّون باستقبال صاحب الحانة سي عبد السلام القصير القامة، وصديقه اليهودي الطويل القامة. لكن أهمّيّة "خوانا دياركو" تكمن في شيء مختلف: نقاؤه ونظافة أرضيّته وجودة نبيذه وأطعمته. ظلّ شكري محبّاً لهذا المكان الجميل، الذي ضاعت منه فيه محفظة نقوده عدّة مرّات، واستردّها دون مشاكل ولا أكاذيب. إن روّاده أمناء. لكن شكري يُرجِع استعادته لمحفظته إلى يقظة سي عبد السلام، الذي كان أيضاً

مستعدّاً لطرد أيّ شخص لمجرّد تحريك الطاولات والكراسي بعنف، يُحدِث الفوضى. كان في كل مرّة يُخبِر شكري عن الشخص الذي وجد محفظة نقوده، وردّها كاملة غير منقوصة من أيّ ورقة نَقْدِيَّة أو بطاقة. وكان شكري يُكافِئ الشخص الأمين بزجاجة خمر جيّدة، وبابتسامة مرفقة بتحيّة، كلها تقدير كلّما دخل الحانة، حينها يُشغّل سي عبد السلام أُغنيّة شجية للمطربة المغربية لطيفة أمل، تقول كلماتها "شوفو الحبيب سلّم فيّا...". كثيراً ما بكى شكرى حين سماعه لها. ذات مرّة، كان رفقة جان جوني الذي حين رآه يبكي بعد سماعه للأُغنيّة، سأله، فترجم له شكري كلماتها، لكن ردّ جوني كان غير متوقّع: "ألهذا فقط تبكي، يا محمّد؟". تنهّد شكري بعمق، وأمسك بيد جوني، ونظر إليه قائلاً: "لقد نزلت دموعي متأخّرة جدًّاً. اسألني عن هذا التأخير كله. أنتَ بكيت باكراً. أنا أمضيتُ طفولة صلبة، لم يكن لديّ الوقت للبكاء، وكنتُ أفكّر في أنني إن بكيتُ أمام الناس، فإنهم سيهتكون مؤخّرتي. حافظتُ عليها سليمة، وبعدها، حين نجوتُ، بدأتُ أبكي كلّما سمعتُ أرقّ الكلمات."

لم يسمع شكري الطَّرْقات الخفيفة على باب الدار، لكنه شعر بحركة وأنفاس تتردّد في الخارج. وحين تذكّر مخطوط روايته، نهض بسرعة، ونظر من ثقب الباب، فرأى بوغالب متَّكئاً على جدار الدار المجاورة. حين فتح قفز بوغالب، وعانقه. أدخل شكري يَدَيْه في جيب سرواله، ودعاه إلى الدخول، وهو يبحث بعينَيْه عن المغّلف الأبيض الكبير، وحين رآه في يد بوغالب مدّ يده، وتناوله، ثمّ فتحه، وأعاد إغلاقه. إنه كتابه الجديد الذي أمضى أوقاتاً جيّدة في أثناء كتابته. خاطبه وهو ينظر إلى حذائه الرّياضيّ الأزرق:

- نسيتُ المغلّف في الحانة، ولم أتذكّره إلا وأنا في البيت. كانت

ستكون كارثة لو ضاع في ذلك المكان العَفِن. لم يؤدّ شكري واجب إيجار البيت منذ شهرَيْن، لذلك فكلّ طَرْقَة على الباب، أو رنّة هاتف، يعتقد أنها مطالَبة بمال الإيجار. لكن بوغالب أخبره بأن صاحب البيت قد مات منذ شهر ونصف. فردّ شكري ساخراً:

- قد تأتي عظامه إلى هنا، وتطالبني بالمال. الموتى يحبُّون المال كثيراً. هاهاها.

أضاف بوغالب:

- قد يأتيكَ أخوه وهو شبيهه تماماً، إلى درجة أنّكَ ستظنّ أن صاحب البيت لم يمتْ.

شكري:

- سأعطيه ربع المبلغ فقط.

بوغالب:

- أدخِلْهُ إلى البيت، وأعطه كؤوس ويسكي، وعدَّ نفسكَ أدَّيتَ واجب الإيجار. فأخوه هذا كسَّر جينات الأثرياء البخلاء. كأس أو ابتسامة وتصبح حبيب قلبه. أمّا إذا اعتاد أن يأتي إلى هنا، ويخرج مخموراً، فلن يطالبكَ بشيء، وانعمْ، يا سيّدي، في بيتكَ، كأنكَ تملكه.

تغيّرتْ ملامح شكري الذي يحبُّ طَرْد الناس من بيته. ابتسم في وجه بوغالب الذي حمل له أخباراً مهمّة هذا المساء، إضافة إلى إنقاذه لمخطوط روايته من الضياع. ثمّ نظر إليه، وسأله:

- تعرف رواية بعنوان "القلب صيّاد وحيد"؟

اتّخذ بوغالب ملامحَ شخص وحركاته، يتذكّر شيئاً في قاع ذاكرته:

- لا.

- أشعر بأن قلبي صيّاد وعول وحيد في الجبال.

وضع شكري يده على قلبه، وبقي يتحسّس الأضلاع لوقت طويل، بدا كأنه أحصاها، فوجدها ناقصة من ضلعَيْن أو ثلاثة. ثمّ أدخلها في جيب سترته، وأخرج سيجارة، أشعلها، وبدأ يدخّن باستمتاع، قبل أن يسأله بوغالب عمّا إذا كان بولز قد بدأ يتصرّف بغرابة في الآونة الأخيرة. وهل يكون للأمر علاقة بموت زوجته جين. نظر شكري إليه، وبقي يُدخّن، قبل أن يجيبه بأن بولز كان دائماً هكذا، وعليه ألا يتخيّل أنه حزين على فراق زوجته. هذا آخر ما يحدث في نفسيّته. الموت آخر مَنْ يهزّ هذا الأمريكي النحيف. الأمريكيون لا يفكّرون مثلنا في مثل هذه الأمور. بدأت نبرة صوته تتّخذ تلك الحِدّة التي تظهر حين يتمّ ذِكْر هؤلاء، فيرى أن اللحظة قد حانت لتصفية الحساب معهم واحداً واحداً، باستثناء جين وتينيسي رغم علاقته التي أصبحت متينة مع محمّد المرابط. مدّ شكري يده لزجاجة الويسكي، فسبقتْه يد بوغالب وهو يقول مبتسماً:" هل تودّ أن أقوم أنا بهذا؟" عادت يد شكري إلى السيجارة، وصبّ بوغالب نصف كأس، أضاف إليها قليلاً من الثلج. ثمّ أكمل شكري حديثه:

- الأمر لا يتعلّق بهم، بل بمستقبلنا. إنهم يلتهموننا كل يوم بنظراتهم ولغتهم وحركاتهم. كل لقاء مهمّ هو حفلة لالتهامنا. أطيبهم وأمهرهم وأكثرهم إنسانيةً هو ويليام بورّوز، لكنه مُدمِن. أنا شخصيّاً منشغل بما يدور في رأسه، إنه مستعدّ لارتكاب جريمة قتل في أيّ لحظة. تعلّمْ، يا بوغالب، كيف تُودّعهم إلى الأبد. تعلَّمْ هذا الأمر، إنه في غاية الأهمّيّة. لقد استمعت

لبولز زيادة على ما يلزم. وفي النهاية ماذا؟ أصبح هو مَنْ يستمع إليّ، وإلى حياتي. إنه ماكر وتاجر أفكار خطير. ماذا فعل من أجل جين؟ قارنْ بينه وبين ابن بلده سكوت فيتجيرالد، وما فعله من أجل زوجته "زيلدا" التي كانت تفقد عقلها في المصحّات. ماذا فعل سكوت؟ بدأ يبحث عن مزيد من الوقت لكتابة الروايات وتحصيل المال من أجل علاج "زيلدا" في المستشفيات. كما كان يعمل على سيناريوهات الآخرين، هذا العمل هو الذي بدّد موهبته. ذلك كله من أجل "زيلدا". عُدْ وقارِنْهُ مع بولز. قارنْ لتعرف حقيقته.

وقف شكري فجأة، ومشى، ثمّ توقّف في منتصف الممرّ بعيداً عن نور المصباح الذي فوقه. ظهر منه لبوغالب ظلُّه فقط. ظلُّه النحيف المنعكس على الجدار. لا يعلم شكري بهيئته وهو واقف والكأس في يده. إنه يتوجّه نحو المطبخ لجَلْب الفستق. كان يقول ساخراً إن كلمة "فستق" تصلح اسماً مستعاراً لمؤلّف معارض.

***

ها هو بوغالب واقف بالخارج على الرصيف، ينتظر مرور سيّارة أجرة، تنقله إلى بيته. لقد ترك شكري يجلس أمام مائدته وحده، لقد لمس لديه توقاً شديداً لقضاء بقية المساء وحده. لم يأخذ منه كتاباً أو مجلّة، كلّ ما حمله معه عبارة عن بعض الأفكار الحادّة، وكأس ويسكي واحدة، وقطعة جبن إسباني، وعشر حبّات فستق، بقي يلهو بها بأصابعه مثل حبّات السبّحة. شكري يُفضِّل الجبنة الإسبانية على الفرنسية التي يعدّها قذرةً، إذ كان يُقرّبها من أنفه، ثمّ يرميها، ويستغرب لقدرة بعض الناس على أكلها. من أين أتوا بتلك القدرة؟ لا بدّ أن تقضي عمركَ في مزبلة حتّى تستطيع أكل الجبنة الفرنسية النتنة.

بقي شكري جالساً في أريكته يكتب ويشرب الكأس تلو الأخرى. أعجبتْه فكرة العظام التي تأتي من القبر، وتطرق بابه لاستخلاص أموال الإيجار، ثمّ تعود، لتتدفّأ داخل كفنها. في تلك اللحظة نفسها كان بوغالب على الرصيف يتذكّر حديثه مع شكري، وخصوصاً حين أراد الاستشهاد بشاعر هولندي، قرأه في الفترة الأخيرة، فنهره قائلاً: "حين تريد الحديث عن هولندا، تحدَّثْ عن الرسم، هولندا بلد الرّسّامين فقط." لاحظ بوغالب تدخّلات شكري العديدة في أثناء حديثه. شكري يفعل هذا حين تبدأ الخمرة تلعب بجهازه العصبي، لا يحتمل كلام الآخرين، لا يريد أن يسمع شيئاً، وسيِّئ الحظّ مَنْ يكون جليسه في أثنائها. كم كانت خرقاء تدخّلاته وبوغالب يتكلّم. لكنه بقي يلتمس منه التّفهّم بأسلوب متملّق، دون أن يتمكّن من تليينه. في هذه المنطقة، ظلّ أصدقاؤه يستثمرون طاقتهم على التّملّق والتماسك والتّقرّب إليه. وقد بلغ التّوتّر أشدّه حين اقترح بوغالب على شكري ترتيب الكُتُب المكدّسة على الأرض. نظر إليه، فشعر أن الكارثة تنظر إليه بعينَيْن أثقلهما السُّكْر، ثمّ صرخ صراخاً عنيفاً: "مكان تملؤه الكُتُب خيرٌ من مكان تملؤه مؤخّرتكَ القذرة." بهذه الطريقة كان شكري يطرد صديقته ابتسام في منتصف الليل، بعد أن اتّفقا على قضاء الليل معاً، والسبب هو تدخّلها في بعض شؤون بيته الدّاخليّة: ترتيب المكتبة، تغيير التوابل، نقل المبرّد من مكانه، قراءة إهداءات بخطوط الكُتّاب على الكُتُب المهداة إليه مباشرة أو المرسَلَة إليه عبر البريد. ابتسام، التي لن أتحدّث عنها كثيراً في هذا السَّرْد، طُردتْ أكثر من مرّة، وأحياناً قبل ممارسة الجنس، لأنها تتدخّل في شؤونه، أو حين تطلب منه المال بعد تدخين سيجارة محشوّة بالحشيش. ومرّة طردها حين بدأت تتفاخر بأقوال هي عبارة عن نصائح أدبية، هي، في الأصل، للشاعر الألماني "راينر ماريا ريكه" وجّهها لشاعر شابّ، ضمّنها كتابه الشهير "رسائل إلى شاعر

شابّ". بعد ذلك، لم تعد ابتسام تهتمّ بأيّ شيء يكتبه أو يقوله شكري. وبقيت تنتظر موتها بعيداً عنه. لقد وصلت إلى حدّ لم يعد يهمّها شيء، رغم أنها شابّة في سنّ لا بدّ أن يكون كلّ شيء مهمّاً بالنسبة إليها، لتبدأ رحلة البحث عن سرّ الحفاظ على الجمال خالداً. تتبدّل ألوان رحلة هذا البحث. فالباب الذي خرج منه الجمال، غادرت منه السعادة. الجمال صورة أسطورية، يطارده الجميع، النساء قبل الرجال. بقيت ابتسام تراقب جمالها وهو يصعد، ويهبط، ينزلق في أثناء الصعود من جديد، ثمّ يسقط بتعب. هي تراقبه وحيدة، عاطلة ومتلهّفة للشرب وتدخين الحشيش. كانت قامتها هي قامة شكري نفسها، لذلك كانا يشعران بمتعة مختلفة عن رجل وامرأة، واحدهما أطول قامة من الآخر.

هل تدرون بمَ كانا يشعران؟ إن الجواب عن هذا السؤال هو حَلٌّ للغز سهل. إن قلبَيْهما يكونان في مستوى بعضهما، متقابلان، وكذلك عضواهما. التوازي يخلق ذكاء نوعياً في جَسَدَيْهما. ذكاء حادّ وحساسية مفرطة. كل لمسة أو تماسّ هو خيط في نسيج رغبة سريعة، مثل شعلة سريعة الانطفاء، لكنها لاذعة مثل سوط. لم تعد ابتسام تقرب مكتبة شكري. وكان هو يلاحظ هذا العزوف باستغراب، هو استغرابه نفسه من لهفتها على الحديث عن الكُتُب. ذات ليلة بقي فوقها يلهث لساعة كاملة، وهي شبه مخدّرة وعاجزة عن أيّ شيء، لا تستمتع ولا تقدر على دفعه من فوقها. ظلّت عارية وهو يلهث ويبحث عن منطقة في جَسَدها تُلهبه. لاشيء، لا جدوى. هذا أمر حدث فعلاً، فقد كان عبد اللطيف رفقتهما تلك الليلة. وابتداء من تلك النقطة، بدأ عبد اللطيف يُشفق عليه وعليها. أما هي، فلا تستطيع التأكيد أو النفي، لأنها لا تذكر شيئاً من ذلك، لكنها لا تلغي وقوعه، فما يفعله شكري دوماً تُجاريه فيه دون مقاومة. ولم تعد تذكر سوى الضرب برجلَيْه على الحائط وهو يتأرجح فوقها، فلم تفعل شيئاً

سوى إمساكه حتّى لا يسقط من فوق الأرجوحة. كان فمه مبتلاّ باللعاب، وفمها، هي، جافّاً. تلك رحلة مشتركة بين ابتسام وشكري ألِفاها معاً. فالمرء لا يستطيع شيئاً إزاء أمر ترسّخ وأصبح الأقوى.

ضحك عبد اللطيف في سرّه وهو يراقب كيف يتفاوض جسدان في الشتاء البارد، في الساعة الثالثة صباحاً. وفي النهاية، بدءاً في البحث عن ملابسهما فوق الشّمّاعة، فلم يجداها، فتسلّل عبد اللطيف في الظلمة، والتقط الملابس من فوق الأرض، ودسّها تحت السرير، وهو يكتم ضحكة، ستنفجر في النهاية. نهض شكري عارياً وهو يرتعش، وأشعل الضوء، وشرع في البحث عن عبد اللطيف الذي تظاهر بالنوم في غرفة أخرى. ركله شكري، لكن عبد اللطيف انفجر في وجهه بالسّبّ والشتمّ قبل أن يأخذ معطفه، ويغادر. أمّا ابتسام المسكينة، فصرخت بصوتها المقزّز، ثمّ صمتت وهي محبوسة الأنفاس. نامت وهي في مظهر امرأة ميتة، أو منتحرة، داخل فستان شفّاف. الرغبة تقتل، الفزع من الأيّام يقتل، الظلمة تقتل، اعتداء جسد على آخر أيضاً. توقّفت قافلة جَسَدَيْن تائهَيْن وعاجزَيْن العجز كله، حتّى عن البكاء الشديد.

أطلّ شكري من النافذة حين سمع صراخاً وأصوات ركض واصطدام، فرأى حادثة اعتداء وسرقة في الزقاق الخلفي المظلم. ركض اللّصّ في أكثر من اتّجاه بحثاً عن منفذ، لأن الزقاق كان مغلَقاً في نهايته. ثمّ عاد وتخطّى جَسَدَ ضحيته، وهو شابّ في العشرينيات، واختفى في الظلمة الحالكة. بقي الشّابّ مستلقياً على الأرض ساكناً، قبل أن يتحرّك ويستدير، ثمّ ينهض ويمشي مترنّحاً وهو يشتم. وحين سمع صوت نافذة شكري وهو تُغلق، التفت ونظر مليّاً، ومشى مشية الذبيح.

بقي شكري يرتعدُ في مكانه وراء النافذة، فقد راوده الخوف من أن

يكون الضّحيّة هو عبد اللطيف الذي غادر بيته قبل نصف ساعة. أعاد تدقيق النظر، فوجد أن هيئة الضّحيّة تختلف تماماً عن هيئة عبد اللطيف، إضافة إلى أنه أصغر سنّاً. الزقاق مليء بالحفر، لذلك كان يتعثّر ويسقط، ثمّ يتدحرج، إلى أن خرج للشارع المضاء جيّداً. وبدأ يمسح وجهه بيده، وينظر إليها. ثمّة دم يسيل من جرُح في الوجه. مثل هذه الأحداث ربمّا تُغيِّر مسار حياة هذا المنحرف. عاد شكري إلى سريره، ونام تاركاً ضوء الممرّ، لأنه فكّر في أن ابتسام ربمّا تريد أن تنهض إلى الحمّام، فتتعثّر. أطلّ عليها وهي نائمة، رأى على وجهها تعبيراً قلقاً.

في اليوم التالي، نهض شكري في وقت مبكّر. أراد تفقّد ابتسام، فلم يجدها. تركت وراءها عطراً جميلاً وسيجارة مطفأة في المنفضة، وإبريقاً من القهوة. يذكر أنها قالت له إنها ستستيقظ في السادسة، لكنْ، يبدو أنها لم تضبط المنبّه على هذه الساعة، لأن القهوة ما زالت ساخنة، والعطر يملأ البيت، وشرارة في مقدّمة السيجارة ما زالت متوقّدة. لم تخرج إلا قبل خمس دقائق، أو أقلّ، الساعة تشير إلى الثامنة والنصف. بقي شكري فاغراً فاه، وهو ينظر إلى سريرها الذي رتّبته قبل الانصراف. والعطر المنتشر في كل ركن من البيت دليل على أنها رشّته في كل مكان، لاشكّ أنها شمّت رائحة كريهة، فالثلاّجة مطفأة، والأسماك بداخلها. تفقّدها، فزكمت أنفه رائحة نتِنة ما إن فتح الباب نصف فتحة. رمى السمك في كيس القُمامة مع السّلّة البلاستيكية التي كانت تضمّه، وحمله إلى صندوق القمامة الكبير أمام باب العمارة. عاد وهو يتسلّق الأدراج خوفاً من أن يشاهده أحد جيرانه، فالرائحة المدوّخة انتشرت بسرعة. لم يستطع حتّى تفقّد صندوق بريده، فمنذ أيّام لم يفتحه.

***

الكلّ يريد أن يسألكَ، يا محمّد شكري، وقد رأى السنين بدأت تؤثّر في تكوينكَ، في جَسَدكَ، في نظرتكَ، في لغتكَ. لماذا تغيّرت لغتكَ؟ إن أسئلتهم غير ذات نفعٍ. فأنتَ مصمّمٌ في السّرّ على عدم الحديث في هذه الأمور، لأنها قريبة من الفلسفة. وأنتَ أديب كلّما كان سيّئاً كلّما كان ناجحاً ومدهشاً. وكلّ ما بدأت تقوم به وبأناقة متناهية هو استقبال نقّادك ومترجميكَ إلى اللغات كلها أحسن ما يكونِ الاستقبال. عندها تصبح شخصاً رائعاً حقّاً، لكن ذلك لا ينفي عنكَ أنكَ شخص غريب. وكل مَن التقى بكَ يقتنع أنه لم يرَ من قبل شخصاً مثلكَ. ويلاحظ حالات حزنكَ الكثيرة حين تجلس برأس خفيض، والسيجارة تحترق بين أصبَعَيْكَ، وحين تسقط تظلّ هناك على الأرض دون أن ترفعها من جديد إلى شَفَتَيْكَ. كان ذلك يؤلمني حقّاً، فأنتَ شخص منذ سنوات بدأتَ تتمرّن على أن تُبدي رقّة أمام زوّاركَ الأجانب، وتحاول أن تظلّ متمالكاً نفسكَ أمامهم، إلى أن يذهبوا، فتنهار من جديد. بدأتَ تشتاق إلى انهياركَ الذّاتيّ. كأنه إدمانٌ تعود إليه بعد إقلاع لا يدوم طويلاً. فهل هذه التّغيّرات البسيطة هي ما وهبكَ حياة جديدة ومتجدّدة؟ لا تُنكِرْ، إنكَ تتحدّث عن هذا السّرّ في الأُمسيّات الدّافئة. قليلون هم مَنْ يثيرهم حديثكَ، لأن الأكثرية يعتقدون أن حياتكَ كتابٌ مفتوح قرؤوه مرّات ومرّات. وأنا أوّل مَنْ يعرف أنكَ فتحتَ كتابكَ على الجزء الغامض من حياتكَ، أمّا الجزء الواضح، المليء بالضوء، فإنكَ تردّده على نفسكَ حين تضع رأسكَ على الوسادة. إنكَ تعرف كل شيء عن كل الناس الذين يحيطون بكَ، لكنهم لا يعرفون عنكَ إلا ما كتبتَهُ لهم، ما اخترتَ تقديمه لهم أنتَ، وبكامل إرادتكَ. إني أُشفق عليهم حقّاً. يرونكَ قادماً، تراهم قادمين. وقبل أن تُشرق شمس يوم جديد، تقدِّم لهم حكاية جديدة من اختياركَ أنتَ، مُستعمِلاً غِربالكَ السِّحْرِيّ الذي أُوكلتَ له مهمّة فرز الكلمات والمعاني. إنكَ تبحث عن المعنى الضائع

منكَ دوماً. قلْ لهم إذنْ إنكَ، مثلهم، في رحلة بحث شاقّة عن المعنى، لتُنهي شقاءَهم. لا أقول إنهم مغفّلون، لكني أُسمّيهم "أَسْراكَ". ضوءٌ قليلٌ منكَ ويتّضح كل شيء. تأكّدْ من هذا الأمر: إنكَ إن ذهبت أبعد، فإنهم سيتبعونكَ. حتّى المترجمون الخائنون، المرتعدون أمام غموض النصوص، سيتبعونكَ بطواعية وهم يلهثون وراء آثاركَ. قلْ لهم شيئاً وسيكون نافعاً. أم أنّكَ ترى أن هذا العماء هو الأكثر نفعاً؟ قُل لي شيئاً أنا وسأُكلّف نفسي بمهمّة نقله إليهم بالأمانة المطلوبة بين ساردٍ وشخصيةٍ روائية.

قُلْ شيئاً، لقد بدأتُ أرى أموراً كثيرة بعيون غريبة. وإلا فإني سأخترق الجدار، وأنطح برأسي كلّ شيء أمامي. حتّى تنهار الحكاية كاملة، وأُعيد بناءها من جديد. إني متردّدٌ كثيراً نظراً لدقّة الموضوع. أعرف أنني أمام قوّتكَ مجرّد قنطرة ضعيفة بينكَ وبين قُرّائكَ، بينهم وبين حياتكَ، بل بينكَ وبين حياتكَ أنتَ. بينكَ وبين حياتكَ توجد هوّة، أنا واقفٌ عليها، أُشرفُ على تباعدكما مع مرور الأيّام وتراكم الأخطاء. ألم تقلْ بلسانكَ إن زمننا هو "زمن الأخطاء" المستمرّة؟ والخطير في الأخطاء أنها تُتَوارث من جيل إلى جيل. هل تريد لأبنائنا أن يتوارثوا أخطاء آبائهم؟ لا، أنتَ شخصٌ بعيدٌ عن هذا الظّنّ. لكنْ، كَلِّمني رجاء، كَلِّم قنطرتكَ.

بقيتُ أكلّمه كلّ ليلة، وكان يُسمَع منّي صوتاً مثل الأنين. أجلس أنتظر سماع قول منه في هذا الضوء المختال بغرفته. وفي مرّات عديدة، كنتُ أدخل البيت، ولا أجده، فأبقى كالشّبح جالساً على الكرسي الذي في المدخل، أنتظر سماع وَقْع أقدامه على الأدراج. أُنحّي ستارة الساتان، لأدع أضواء بضعة أعمدة كهرباء في الخارج التي تُضيء الزقاق بمصابيح شبه منتهية. أنتظر نجاحي في أن أفاوضه حول تغيير مسار سردنا، وانتزاع موافقته على حذف الشَّتْم والقذف والكلمات السّيّئة التي لا تليق به

ككاتب مشهور. لكنه كان يعود بادياً عليه التّعب الشديد من شدّة الشرب والشجار في الحانات المُريبة. أناديه: يا سي محمّد .. يا سي محمّد .. لكنْ، لا تصدر عنه سوى حركة من يده، ربمّا ترمز إلى تحيّة لطيفة. ثمّ يجلس إلى مائدة الأكل، ويتناول تفّاحة تسقط من يده، فينحني بصعوبة لالتقاطها وهي تتدحرج أمامه مثل الكرة، وهو يتبعها مثل طفل يكاد يسقط وهو يطارد لعبته العنيدة الهاربة منه. وحين تصل يده إليها، يذهب إلى المطبخ، ليغسلها، وهو عائدٌ للجلوس على المائدة، تسقط منه من جديد، فيركلها برِجْلِهِ حتّى تصطدم بالجدار أو بزجاج النافذة وهو يشتم كأنه يشتم كائناً عاقلاً. يتناول شيئاً آخر يأكله ويزدريه ازدراءً، وهو صامتٌ وجامدٌ لا يتحرّك ولا يلتفت. فما يكون عليّ سوى فتح الباب وأنا أتجرّع هزيمتي، ثمّ أهبط السّلّم وأنا أطلب الله أن يساعدني في إتمام مهمّتي مع هذا الرجل الغريب.

حين أقوم بمراجعة ما جرى، أجد أن إمكانياتي محدودة جدّاً أمام هذه الشّخصيّة المزدوجة، فلا هي من الواقع بشكل كامل، ولا هي من الورق بشكل كامل. أظنّ، بل أنا متأكّدٌ أنه يفعل كل شيء بشكل مقصود حتّى لا أذهب بالسَّرْد إلى الوجهة التي أريد. إنه يشعر بوجودي معه، خلفه، أمامه، أُراقبه من بعيد، ومن قريب. لكنه يفعل كما لو أنه لا يرى شيئاً، ولا يُحسّ بشيء. ينتظر أفعالي التي يتوقّعها دوماً، بل ويتوقّع أسوأها، فيكون قد هيّأ لها وسائل الدفاع أو الهجوم الممكنة. لذلك، عزيزي القارئ، أنا مضطرّ لتغيير خطّتي السَّرْدِيَّة، وأدعوكَ لعدم الاكتراث بالمفاجآت. إن كلّ شيء سأقوم به سيكون بحُسن نيّة فائقة، لصالح السَّرْد، وبهدف إمتاعكَ وإفادتكَ، وجعلكَ تحسّ بأقصى درجات الجمال الذي يمكن أن تقدِّمه الحكايات.

سأترك محمّد شكري الآن، وأعود إلى ويليام بوروغ الذي تركته في غرفته يكتب رسالة شيّقة ومبدعة لصديقه ألان غينزبورغ. لم يفعل معي ويليام أو يوي تشين ما قام به شكري. بل لقد لاحظتَ، عزيزي القارئ، أنه حتّى الأبتر، الذي يلقّبه بوروغ بـ "بليز"، لم يحرّك ساكناً أمام كلماتي وأوصافي التي أضفيتُها عليه أو على صديقه "الصامت المنافق". وحتّى الألماني وزوجته لم يتدخّلا في قيّادتي للأحداث. لكن شكري قد قام بما لم يقمْ به مائة رجل. فأنا سيّد الحكي والكلمات، أجد نفسي ضعيفاً، بل وأظهرتُ له ضعفي وأنا صاغرٌ، ووصفتُ نفسي بـ "القنطرة الهشّة". لكنْ، رغم ذلك، فإن سألتَني عن رأيي فيه لما عرفتُ. أمرٌ طبيعيٌّ ألا يشبه باقي الشّخصيّات، هذا أمر أنا مقتنعٌ به، بل ومفيدٌ لسَرْدِي، لكنْ، أن يطمح في أن يصبح سيّد السَّرْد الأوّل، فهذا ما أرفضه بشدّة. وربّما لولا الخجل لطلب منّي هذا الطلب الغريب في أقلّ الكلمات الممكنة. إنه شخصٌ حادُّ وحاسمٌ. لقد أصبح يرى كلّ شيء بعينَيْن غريبَتَيْن. ولم يعد يُصدِر التعليقات كما كان من قبل. لم يعد حتّى يطرح الأسئلة أمام الأشياء الغامضة، بل أصبح يُرغمها على أن تصبح واضحة. وحتّى إن طرح الأسئلة، فإني لم أعد أسمع إجاباته عن تلك الأسئلة، بل يختزن إجاباته لنفسه. هذا شأنه طبعاً. إنه يحيا في نطاق نفسه، ولا دخل لي به في هذه الحدود، التي يحرص على إظهارها كحدود، لا ينبغي لأحد اجتيازها. مَنْ أتى بهذه الطِّباع؟ من معاشرته الطويلة لبول بولز؟ أم لجان جوني؟ لكنْ، لماذا لم يتطبّع بالطِّباع المنفتحة لجين بولز أو لتينيسي ويليامز؟ بل لماذا لا يُبقِي على نفسه كما هي، نفس محمّد شكري المعذّبة، الشراع الذي مزّقته الرياح، وخاطتْه المياه؟

في تلك الليلة، وقبل الانتقال إلى سَرْد أشياء تتعلّق بحياة بوروغ، وبالأحداث المتعلّقة بها، جلستُ صامتاً بعد العشاء. لا أزعم أنني

تناولتُ شيئاً، فقط اكتفيتُ بالنظر بالأكل الذي أمامي، على هيئة حائرٍ، وأنا أسترجع نظرة شكري إليّ وأنا جالس على المقعد الذي في المدخل كما ينظر الناس إلى الأشباح. لقد حوّلني شكري إلى أشياء، لم أتخيّل يوماً أنني سأتحوّل إليها، ولو تخيّلتُها فعلاً، لَمَا مارستُ مهمّتي كسارد ولو لدقيقة واحدة. لقد تحوّل شكري فجأة إلى ساديّ، يُرغِم الناس على تقمّص هيئاتٍ يكرهونها منذ ولادتهم، ويجلس هو يراقبهم عن بُعْدٍ ورائحة الخمر والسجائر تفوح منه، كأنّه مُبلَّلٌ بالخمر، ومُحاطٌ بهالة من دخان التبغ. هل تدرك معنى ذلك، عزيزي القارئ؟ معناه أنني لن أنطق أمام حضرتكَ منذ الآن إلا بكلمات التعاسة، بعدما كنتُ أنطق بكلمات الفرح مع ويليام بوروغ. هذا الشخص الذي أراه دوماً مضطرباً، لكني لم أجد به مرضاً. إن اضطرابه بادٍ الآن بقوّة وهو يكتب رسالة لألن غينزبورغ كما أخبر الفتاة الصّينيّة يوي تشين. يضع قربه علبة سجائر وكأس ويسكي ممتلئةً مع قِطَع من الثلج والليمون.

حين اقتربتُ وتفرّستُ وجهه جيّداً، وجدتُهُ يكتب الكلمة، ويبتسم لها. سواد معطفه وقميصه وقبّعته أبرزوا هُزال وجهه. بدا لي نحيفاً جدّاً وشاحباً. خطوطٌ محفورة في أسفل خَدَّيْه، هي الخطوط نفسها المحفورة على وجوه الموتى والمحتضِرين. اهتزّ قلبي لحاله. يكتب الكلمة، الجملة، ثمّ يتوقّف ويدخّن، ثمّ يشرب ويمسح على وجهه بيده، فيخرج الدخان من أنفه أبيض وكثيفاً. يتنفّس بعمق، ثمّ يعود لورقته ويكتب. هل يكتب رواية؟ أم رسالة؟ أم أنه يكتب رسالة، كما لو أنه يكتب رواية؟ فأنا أعرف هيئة كاتب الرواية وهيئة كاتب الرسالة. هيئتان مختلفتان تماماً. لكن ويليام كان يتّخذ الهيئتَيْن معاً. لا يتّخذهما بالتناوب، بل في وقت واحد، نسيج متداخل الخيوط تُراعى فيه جودة الكلمة، ودقّة الوصف، وقوّة الفكرة، ونظام الحبكة. لا شكّ أن غينزبورغ ينتظر رسائله، إنه قارئها الوحيد، وهو

قارئ عظيم، لذلك كان الناس جميعاً سيقرؤونها. وكلّما فكّر ويليام بأن غينزبورغ ينتظر رسالته زادت حَيْرته، واضطربت خطوطه. نهض ومشى بقلق داخل الغرفة. فجأة سمع طَرْقة خفيفة على الباب، وحين فتح وجد أمامه يوي تشين، رحّب بها، ودعاها للدخول دون أن تظهر عليه آثار المفاجأة، تصرّف كأنه كان ينتظرها. دعاها إلى الجلوس وهو يمدّ لها وسادة صغير محشوّة بالقطن، تشبه اللعبة بألوانها الوردية والرسومات البارزة عليها. ابتسمت يوي، وقالت:

- تشبه وسادتي حين كنتُ طفلة.

ضحك بوروغ، وأطفأ سيجارته، وصبّ كأساً له وأخرى ليوي. أخرجت هي زجاجة ويسكي وكيساً من الفستق وتُفّاحَتَيْن من حقيبة صغيرة مصنوعة من الثوب، تحملها على كَتِفها. لم تبقَ في فم ويليام أسنانٌ كثيرة، فكيف كيف يأكل فاكهة التّفّاح؟ بدت يوي أصغر سِنّاً من ذي قبل. أصعب جنس يمكن تحديد سنِّهم الفعلي هم الصّينيّون. لاحظْ، يا عزيزي القارئ، كيف يشيخ الأمريكيون والفرنسيون والعرب والألمان بسرعة. الحانات، يا عزيزي، الحانات. فحيث وُجدَت الحانات بكثرة، شاخ الناس قبل الأوان.

أخرجَ ويليام سكّيناً صغيرة، وقَطّع التّفّاحة إلى قِطَع صغيرة، ناول إحداها إلى يوي، ورفعا نخبهما. أمّا هو، فبقي خائفاً من أن تراه يوي كيف يمضغ التّفّاح. يظهر كأنه يلوك أحجار وادٍ صغيرة وملساء. ينقلها من حنكٍ إلى حنكٍ، وفي النهاية يلفظها تحت الطاولة في غفلة منها. لا تنقصه الحِيَل وطُرُق المجاملات في مواقف مثل هذه. من الممكن أن تكون يوي قد لاحظت طريقة مضغه للتّفّاح، فهي لم ترفع عينَيْها عنه لحظة واحدة، لكنها كي لا تُحرجه كانت تُدير رأسها مفتعلة أنها تتفحّص غرفته وأشياءه. لم تكن أشياء كثيرة، فويليام مسافر محترف، لا يحمل معه حقيبة ممتلئة.

أشياؤه كلها وأغراضه تتلخّص في مجموعة كُتُب ومعطف وقُمصان وحذاء رياضي، وقبّعة، وآلة كاتبة أمريكية الصنع. وهذه الأشياء كلها متفرّقة، منها المعلّق، ومنها المتروك على المقعد والطاولة والكرسي، وتفيض بالصمت.

كانت يوي تترك دوماً مبادرة الكلام لويليام. وقد راقها أنها تفهم إنجليزيته البطيئة بوضوح، فهو يتحدّث ببطء مثل أستاذ يُعلّم اللغةَ لطلّاب صغار. لغته راقية ومليئة بالتلميحات والاستعارات والشّاعريّة. لا يُرفق نُطقه بحركات من يده، كما يفعل معظم الأمريكيّيْن. الكلمات فقط قادرة على أداء معناها. لقد رأت يوي جمالَ اللغة وهي تلقي بثمارها في كل مكان وتُسعد المستمع إليها. لغة مُلِئَت بأجمل الصيغ والصور والأفكار. لم تستطع يوي أن تصدِّق أن شخصاً يتحدّث هكذا طوال الوقت. لم يسبق أن تخيّلت وجود طريقة كلام كهذه. استمعت لكثيرين، لكن ويليام متكلّم مختلف. لا يتكلّف في أثناء كلامه، لكن الكلام يخرج غريباً ومليئاً بالألوان، كأنها لوحة تنقل مناظر ساحرة. لم تشرب من كأسها سوى جرعة واحدة أو جرعَتَيْن. لم تستطع النُّطق بكلمة واحدة، كأن فمها قد مُلِء فجأة بالقُطن. لا تشرب ولا تتكلّم فقط تنظر وتستمع لهذا الرجل الذّكيّ الذي يكاد يعرف كلّ شيء. ومعرفة كل شيء لا تعني الحديث في كل شيء، في المواضيع كلها، لا، لا، هذه اسمها ثرثرة صادرة عن غباء فظيع. إن معرفة كل شيء تعني في حالة ويليام أنه يتجاوز عتبة الشيء إلى داخله، فتبدأ المقابسات تشعُّ في المحيط الضّيّق، وتُضيء كل شيء فيه.

تجري في شرايين ويليام ويوي دماء مختلفة. لذلك نزعت يوي القطن من فمها، وتكلّمت بصوت صارم:

- سيّد ويليام، أنا لا أحتمل حبسي هنا داخل هذه الغرفة الضّيّقة. ما رأيكَ أن نعود إلى الحانة؟

كان ويليام يُنهي رسالته إلى غينزبورغ، فقال دون أن يرفع عينَيْه إليها:

- طيّب، اذهبي أنتِ الآن، يا يوي، وسألحق بكِ بعد وضع خاتمة لرسالتي.

تردّدت يوي قبل الانصراف. فقد ظنّت أن ويليام سيجمع أوراقه، وينهض ليذهبا معاً. لكنها في النهاية نهضت وقالت له: "أراكَ بعد قليل، يا ويليام، لا تتأخّرْ."

اجتازت الباب بخُطى واسعة، بدت غاضبة بعض الشيء وحزينة. ظنّت أنه لن يلحق بها. مشيتها البطيئة تقول إنها نادمة عن قرار الانصراف. كان يمكنها البقاء معه حتّى يُنهي رسالته، أو لعلّها رواية يكتبها، ثمّ ينصرفا معاً نحو حانة السفينة، يداً في يدٍ.

حين وصلتْ وجدت المكان مليئاً بالناس، ومساعدها اليوناني ينتقل بين الموائد، يسجّل الطلبات، ويضع أخرى أمام أصحابها. حين رآها انفرجت أساريره، فسألها أين غابت هذه المدّة كلها؟ لم تجبْ عن سؤاله. توجّهتْ مباشرة، وجلستْ على مقعدها وراء الكونتوار. وضع المساعد كؤوساً وصُحوناً فارغة، وهو ينظر إلى غيوم الحزن على وجهها. وحين رفعت رأسها نحو الباب، رأت ويليام يتوجّه نحوها، فابتسمت بطريقة أسرت قلبه، فجلس على الكرسي وهو ينظر إلى عينَيْها، دون أن يقرأ فيهما حرفاً واحداً من الكلام الغاضب الذي كانت تودّ قوله له. وحين سألته عمّا يريد شربه، أحسّت أنها وَفَتْ بواجبها تجاهه. لكنه طلب كأس ماء فقط. غابت نصف ساعة، وعادت بصحن سلطة وفاكهة وقنّينة ماء حجم لتر واحد. تبادل ويليام كلمات قليلة مع هذه الغريبة التي لم يمرّ على تعرّفه عليها نصف يوم. بقيت تتحرّك وراء الكونتوار بخطى خفيفة دون أن يُسمَع صوت لخطواتها، فقد كانت تلبس في رِجلَيْها حذاءً من القطيفة السوداء.

صورة لتينيسي ويليامز

ماذا يريدون من طنجة هؤلاء المستبعدون من بلدانهم؟ هل هي تريد منهم شيئاً؟ ماذا يجدون في أمكنتها وأزمنتها المختلفة والمتعاقبة؟ ماذا يوجد في ليلها؟ في مقاهيها ومطاعمها وأنديتها؟ ماذا تريدون منها، أيّها الغرباء المجانين؟ إن كلّ مستبعد يجد فيها أكياساً ليفرغ فيها كراهيته الشديدة للمُدُن الكبرى وناسها المضطربين في يقظتهم وأحلامهم.

وصل تينيسي ويليامز قبل ويليام بورّز إلى طنجة. وحين التقى بول بولز لم يخبرْه عن وُشوك موعد وصول ويليام. إنه على المياه القريبة يلهو. لقد درّب نفسه على أن يلهو كما لو أنه طفل. واليوم الذي يمرّ دون أن يلهو فيه هو يوم داكن وحزين، ترى فيه ويليام يسند يده إلى جبهته، ويتذكّر الأشعار الحزينة. كان قد كتب منذ أسابيع رسالة إلى تينيسي، يُخبره فيها عن خارطة أسفاره القادمة، إذا توفّر المال لذلك". هذه العبارة الشّرطيّة الأخيرة لم تجعل تينيسي يصدِّق أن ويليام سيفشل في الحصول على المبلغ الذي يريد. عليه فقط أن يحدّد المبلغ، ثمّ بعد ذلك، تُفتَح حقائب أصدقائه في العالم كله، ليبعثوه إليه. وإن الجواب عن سؤال طرحه بول: قلْ شيئاً عن ويليام، يا تينيسي؟ يكون صعباً ومراوِغاً. محمّد شكري أيضاً طرح السؤال نفسه على تينيسي. وكان محمّد المرابط سيطرحه، لولا أن نوعاً من الكراهية نشأ بينهما بشكل مباغت في فترة قليلة قبل رحيل ويليام، ولا أحد عرف إلى أين.

لماذا لم يقلْ تينيسي لبول إن ويليام ينتشي في سفينة على مياه قريبة منه؟ لأن تينيسي ظنّ أن هذا الخبر قد لا يسرُّ بول. فقرّر الصّمت رغم أن بول سأله عنه عدّة مرّات، وعن المكان الذي يمكن أن يوجد فيه الآن. فكان تينيسي يقول في سرّه: "اطمئنّ، إنه على متن سفينة ستصل اليوم أو غداً." عرف تينيسي أخبار ويليام كله من غينتزبورغ الذي كان يتابع أخباره كما لو أنه ابنه الطائش، بالإضافة إلى الرسائل والأخبار المتفرّقة التي تحملها الرياح من كل مكان إلى أيّ مكان.

لكن محمّد شكري، وأنا شخصيّاً لا أعرف بأيّ طريقة، نقّب جيّداً عن أخباره، وعرف أنه قادم إلى طنجة. فأخبر بول بولز ذات ليلة. لم يكن يُفشي سرّاً أو يبلّغ عن ويليام الذي يسأل عنه الجميع، بل كان شبه سكران، فتدفّق منه الكلام أمام الشخص الذي لا ينبغي أن يتدفّق مثل هذا الكلام أمامه. سقطت أوراق كان يمسكها بول بين يَدَيْه على الأرض وتفرّقت، كانت تضمّ ألحاناً لمسرحية ستُعرض قريباً في بعض مسارح المُدُن الكبرى بأميركا. سقطت الأوراق، وتبعها بول ملهوفاً، يلتقطها واحدة تلو الأخرى. ولمّا استوى جالساً على المقعد، أعاد طرح السؤال على شكري:

- أأنتَ متأكّد، يا محمّد، ممّا تقول؟

أجاب شكري وهو يُشعل سيجارته:

- نعم، سيصل ويليام إلى طنجة خلال يومَيْن.

سأله بول وهو مستغرب:

- ومن أين لكَ بهذا الخبر الذي لا أعرف كيف أصفه، بالجيّد أم السّيّئ؟

رشف شكري من كأسه جرعة كبيرة، ثمّ أجاب وهو يدغم كلماته:

- تينيسي هو مَنْ أخبرني.

وضع بول الأوراق على طاولة صغيرة جنبه، ثمّ سأله:

- لقد سألتُ تينيسي، لكنه أنكر معرفته بأيّ خبر عن ويليام.

ابتسم شكري ابتسامة خبيثة وهو يحني رأسه مدركاً حجم الورطة التي أوقع فيها تينيسي. ولم يعرف كيف يصحّح الأمر في الحال. لكن الخمرة لعبت بعقله ولسانه، فنقصته الحيلة. بقيّ ينقّب عن الكلمات الجيّدة لإصلاح ما ارتكبه. فكّر في موقف تينيسي أمام بول حين يتواجهان أمام هذه المسألة التي أصبحت شائكة رغم بساطتها. نهض شكري من مكانه، واستأذن بول في فتح النافذة، فالجو حارّ ورائحة السجائر أصبحت خانقة، ثمّ عاد إلى مكانه، وصوّب نظره جيّداً نحو عينَي بول:

- اسمعني جيّداً، يا بول. أنتَ أقرضتَ ويليام مبلغاً كبيراً من المال، وتريد الآن استرجاعه. تينيسي يعلم بذلك. وقد قال لي بأنه سينتظر حتّى يصل ويليام إلى طنجة. وهو، أيْ ويليام، في حالة مزرية، وأنا شخصياً لا أعرف ما السبب. وأكّد لي تينيسي أنه سيعطيه نصف المبلغ، ليسلّمه إليكَ، وتحت إشرافه شخصياً. لهذا السّبب لم يخبركَ تينيسي. إن الأموال التي سيسلّمها إليكَ ويليام هي، في الحقيقة، أموال تينيسي.

ابتسم بول، تراجع إلى الخلف وهو يُعيد حمل أوراق ألحانه بين يَدَيْه:

- هكذا، إذنْ، لننتظر ونرى. صُبَّ لي كأساً. ها هي الأخبار السّيّئة تصبح جيّدة. نخبكَ، يا محمّد. أنتَ ساحرٌ حقّاً.

كان بول يسأل عن ويليام طمعاً في استرجاع المال الذي اقترضه منه، ولم يتمكّن من إرجاعه منذ سَنَتَيْن. فكان كلّما التقى به يقول له: الشهر

القادم تعود إليكَ أموالكَ، أيّها البخيل. وكان بول ينتظر الأشهر القادمة دون أن يتوصّل بشيء. ربمّا لهذا السّبب كان تينيسي يرفض التصريح أمام بول بأيّ خبر أو معلومة عن ويليام. لكنْ، الآن اتضّح بالملموس أن بول رجل طيّب، ولا يريد شيئاً من ويليام سوى أن يُرجع له أمواله. وها هو بول يفرح بنصف المبلغ فقط.

قبل أن ينهض شكري ويعود إلى بيته أو إلى حاناته، أخذ وعداً من بول بعدم قول ما سمعه منه لتينيسي، فربمّا قد تفشل خطّة الوساطة التي يريد أن يُباشرَها. سيغضب تينيسي، ويقطع علاقته بشكري، وربمّا حتّى ببول، وبالتالي سيضيع المال. بهذه الحجّة، تمكّن شكري من إقناع بول بنسيان ما سمعه منه قبل قليل.

كان شكري يلبس حذاءً بكعب خشبي، لذلك بقي وقعُ خطواته مسموعاً إلى أن اختفى تماماً، فأدرك بول أنه أصبح بعيداً عن الحَيّ، وأنه ربمّا تجاوز الشارع الذي يصبح خالياً من المارّة في مثل هذه الساعة. بقي يسير وهو يفكّر في أمر إفشائه لسرّ، كان بينه وبين تينيسي. لكنه ظلّ مطمئنّاً بأن بول لن يُخبر تينيسي بالأمر، ليس بدافع الوفاء لوعدٍ قطعه أمامه، بل لأن مفاتحة تينيسي بالأمر سيُفشِل عملية استرجاعه لجزء من ماله الذي ينتظره منذ أكثر من سنة ونصف. وهذا لا يعني أن بول لا يفي بالوعود، بل هو، في رأي شكري، رجل يقف ملتزِماً أمام وعوده مهما حصل. وذلك يذكّره بمواعيد تسليمه المال الذي كان يتحصَّلُه مقابل ترجمته لفصول من رواية "الخبز الحافي" التي كان ينشرها بمجلّاتٍ أمريكيةٍ ذائعة الصّيت. كان المترجم يحصل على حقّه، والمؤلّف أيضاً. لم يعشْ شكري تجربة الوفاء هذه من قبل إلا مع بول بولز. بل لم يكن يعرف أن مثل هذا الوفاء للمبادئ موجود لدى الإنسان أصلاً.

فتح شكري حقيبته الجِلْدِيَّة الصغيرة، وتأكّد من وجود سيجار، أخذه من علبة بولز التي كانت موضوعة على المائدة. أخرجَهُ ومرَّرهُ تحت أنفه، ثمّ أعاده ببطء إلى قاع الحقيبة. وجهَتُه الآن هي حانة "البريد". هناك سيدخّن السيجار، ويشرب ألذّ الكؤوس. كما قرّر أن يتعامل بترفّع مع كل مَنْ يحاول التّقرّب منه أو الحديث منه. إنه قادم من سهرة مع أكبر أدباء أميركا والعالم، وعليه أن يحافظ على هذه المرتبة، لا أن يلوّث قيمته هذه في التراب مع أرخص السُّكارى وأبشعهم وأدناهم مرتبة.

وجد كرسياً فارغاً أمام الكونتوار في الزاوية، جلس، ووضع حقيبته جنبه، وطلب زجاجة نبيذ. لم تمرّ عشر دقائق حتّى دخل عبد اللطيف في هيئة مَنْ له أخباراً، يريد إيصالها له. رحّب شكري بصديقه، ودعاه إلى تناول كأس معه. لكن عبد اللطيف بادره بالقول:

- ليس هناك مجال للشُّرب. إن محمّد تيمد(*) يحتضر، ويلزمه الدّواء، لو تساعده بقليل من المال.

انتفض شكري في وجه عبد اللطيف مثل العاصفة:

- العبْها بعيداً عنّي. أنتَ، بدون شكّ، تعلم أنني قادم من بيت بول بولز، وتعتقد أنني استلمتُ أموالاً منه. أُغرُبْ عن وجهي الآن.

مَدَّ عبد اللطيف وصفة الدواء لشكري:

- خذْ، هذه وصفة الدواء، اشترِه بنفسكَ من صيدلية الحراسة.

أدار شكري ظهره لعبد اللطيف:

---

*) محمّد تيمد مسرحي مغربي، كان من أصدقاء شكري ..

- ألم تجد غير هذه الحيلة الرخيصة لأخذ المال منّي. أُغرُبْ عن وجهي، يا عبد اللطيف.

خرج عبد اللطيف دون أن يقول شيئاً، فلا فائدة في محاولة إقناعه. لم يكن يعلم أنه قادم من بيت بولز. في آخر لقاء جمع بين عبد اللطيف وشكري، عبّر فيه هذا الأخير عن عزمه، فكّ أيّ ارتباط ببولز. مضيفاً أن جين رحمه الله هي مَنْ كانت تُلحّ عليه من أجل أن يزورهما. لكنْ، بعد موت جين لم يعد أيّ مبرّر لزيارة بول. ماذا سيفعل من أجله أيضاً بعد ترجمة "الخبز الحافي" إلى الإنجليزية حتّى كؤوس الشراب يقدّمها له ببخل شديد.

أخرج شكري السيجار من محفظته، وبدأ يدخّن، وشعاره الترّفّع على التعساء الموجودين في الحانة. الجميع ينظر إليه، بعد أن تابعوا طريقة تصرّفه مع عبد اللطيف صديقه المقرّب. لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه. بقي يفكّر، ماذا لو كان محمّد تيمد يحتاج إلى الدّواء فعلاً؟ لقد سمع من مرضه قبل أسبوعَيْن من ابنته التي التقى بها صدفة، وهي خارجة من صيدلية قريبة من مقهى فرنسا، إذ كان ذاهباً للقاء بصمويل بيكيت في الساعات الأولى من ذلك الصباح. كانت حزينة وشاحبة، أخبرته حينها عن مرض والدها دون التشديد على حالته التي كانت تسوء يوماً بعد آخر. ذُهل لمنظرها الحزين، لكنه لم يجرؤ على طَرْح مزيد من الأسئلة عن وضعيته، كانت هي مستعجلاً، وكان هو مستعجلاً كذلك، فاكتفى بأن طلب منها تبليغه السلام. ثمّ توجّهت هي إلى الوالد المريض، فيما شقّ هو طريقه نحو بيكيت الذي كان جالساً وحيداً في زاوية من المقهى.

لو يعود عبد اللطيف ويأخذ ما يريد من المال لشراء الأدوية لمحمّد. ما كان يجب أن يشكّ في كلامه أبداً. ما كان يجب أن يبقى مغربياً إلى الأبد، يرتاب في أقوال الناس، وخصوصاً في ما يتعلّق بالمال. ماذا كان

سيخسر لو مَدَّ له خمسمائة درهم مساهمة منه في شراء الأدوية لصديقه المريض الذي لا أمل في شفائه؟

بقي شكري يشرب ويدخّن وهو يفترس نفسه دون رحمة. افترس نفسه ما فيه الكفاية، حتّى تأكّد أنها لن تعود لفعل شيء مثل هذا. لن يدعها تفعل شيئاً مماثلاً منذ اليوم. شعر أنه بدأ يُشفى من الندم القاتل، ثمّ عاد إلى انتشائه، عاد إلى استنشاق دخان السجائر، وسماع القهقهات العالية، والكلام الرخيص الذي يُقال بأصوات خافتة. هذا الضجيج كله، من ضحك مزيّف وكلام مسترسل، ما هو، في النهاية، إلا حول موضوعات أقلّ سُمُوّاً من الموضوعات التي يفكّر فيها هو، إنها طاحونة صاخبة تقوم بسَحْق الموضوعات اليومية العارضة، كارتفاع الأسعار، واقتراب موعد العيد، وانتصار فريق كرة قَدَم على آخر، وتهريب المخدّرات، وسرقة المال العامّ ... إلخ. وأمام ضجيج الطاحونة الصاخبة هذه يطلّ حارس الحانة برأسه من الخارج، ليُشعِر الضاحكين والمتحدّثين بحضوره. وأحياناً يرافق وافداً جديداً إلى الكونتوار، ليُهيِّئ له مقعداً طَمَعَاً في بعض الدراهم حين يهمّ بالمغادرة. لكن الوافد يكتفي بابتسامة صغيرة وقول رصين: شكراً. فيعود الحارس إلى مقعده بالخارج أمام الباب، وهو يظنّ أنه ضمن خمسة دراهم على الأقلّ من هذا الرجل الرصين والمهذّب.

عاد شكري إلى سيجاره وكأسه، وهو يحاول أن يستبعد من ذهنه أن يرحل محمّد تيمد عن الدنيا في الأيّام القريبة القادمة. تغيّرت ملامحه، وتلاشت حيويته وحركاته. بدا مرتخياً بعض الشيء، وبين حين وآخر، يمسح شَفَتَيْه بأصابعه. كانتا تبدوان نحيلَتَيْن ويابسَتَيْن. ثمّ بدأ يتّخذ صورة رجل مكتئب صامت. لكنه حين عاد للنظر حوله، عاد إليه ترفّعه القديم. وحين سمع سِكِّيراً يقول لآخر مَدّ له قنّينة بيرة: "ضَعْها في مؤخّرتكَ"، تكوّر على

نفسه من الضحك. يجب أن يحرص على أن يبقى الرجل الأوّل في الحانة. وذلك يتطلّب عدم التفكير أبداً في الرجل المريض الذي سيرحل قريباً.

لم يستطع النظر إلى ساعته. فالوقت يمضي منساباً، والأيّام تمضي مسرعة. يوم واحدٌ وتصل سفينة يونانية، تحمل كاتباً اسمه ويليام بوروغ. ليس لديه الآن أيّ قول أو فكرة عن وصول هذا الرجل. كما أنه لا يستطيع أن يعبّر في كلمات عن تخوّفه من هذا الشيء الوشيك الوقوع. من المؤكّد بأن النسيج الأميركي سيتمزّق بعد وصوله مباشرة. أمّا إذا أعطى تينيسي المال لويليام من أجل أن يعيده لبولز، وإذا لم يُفشِ بولز الكلام الذي قاله شكري له عن عِلم تينيسي بوصول ويليام، فإن النسيج الأميركي سيبقى سليماً من أيّ تمزّق. لينتظر شكري ما ستُسفِر عنه الأيّام القادمة، فلا شكّ أنها، كعادتها، تُخبّئ للخَلْق أشياء ثمينة مثل الهدايا، وأخرى رخيصة كتُراب الأمكنة الفاسدة.

***

حين وصل تينيسي بدأ في كلّ مساء يتعلّم شيئاً من طنجة. خلال تجواله في أحد أزقّتها وجد أمامه محفظة نقود مرمية على الأرض، ولمّا حملها وفتحها، وجد فيها وثائق خاصّة برجل ألماني، اللّصّ أخذ المال، ورماها قرب بركة ماء، إذ كان المطر قد سقط طوال النهار. تبلّلت الأرض والأرصفة، وامتلأت الحفر الكثيرة في الأزقة الخلفية بالماء. الضّحيّة، حسب ما هو مُثبَت في بطاقة تعريفه وبطاقات مهنية أخرى، هو مدير شركة صغيرة. كانت طنجة في تلك الأيّام قد بدأت تستقطب رجال الأعمال الألمان. ربمّا مرّ هذا الألماني من المكان الخاطئ، وربمّا دخل حانة شعبية من تلك التي يرتادها اللصوص والشّواذّ، فانتُزِعَت منه محفظة نقوده كما تُنتزَع ريشة من جناح طائر. بصق تينيسي على الأرض، وأعاد المحفظة،

حيث كانت، واستمرّ ماشياً وهو يفكّر في ملامح الألماني الذي تُصوّره طويل القامة ونحيلاً. مشى في اتّجاه لم يخطّط التّجوّل فيه. فكّر في ضرورة حمل مسدّسه معه، خصوصاً وأنه دائم التّسكّع في أمكنة خطيرة، سيّئة الإضاءة، ومع ذلك يقصدها الناس من الأجناس والأعمار كلها. بقيت يده اليمنى تتّخذ شكل المحفظة الجِلْدِيَّة البُنِّيَّة الصغيرة. الألمان لا يحملون تلك المحفظات المستطيلة التي تملأ الجيب، بل وتمزّقه، ويمكن ملاحظتها من خارج الجاكيت أو المعطف. لقد رأى ذلك في العديد من الأفلام الألمانية. الإنجليز والأمريكيّون يحملون محفظات نقود كبيرة، تُثقل جيوبهم باستمرار، وتمزّقها في الكثير من الأحيان. لذلك إن وضعتَ محفظة أمريكية أو إنجليزية في جيب جاكيت ألمانية، فإنها لن تدخل إلا بنصفها، ويبقى جزء ظاهراً منها، ممّا يسهل سرقتها أو سقوطها. المحفظة الأمريكية غير مَحميّة في جيب ألماني. أخرج تينيسي محفظة نقوده من جيب معطفه، نظر إليها، ثمّ أعادها. سقطت في جيبه الكبير، كأنها سقطت في جُبّ عميق. لم تكن محفظة من الجِلْد الثمين، لكنها جميلة، وتضمّ جيوباً كثيرة. بداخلها شيكان وعملة أمريكية ومغربية. لكنْ، لو سُرقت منه، لاحتفظ بها السارق لجمالها. فيها جيب صغير شفّاف، تُوضَع فيه الصور.

بدأ تينيسي يُسرع الخطى، فظهرت مشيته مثل الجري المتثاقل. بقي يجري دون أن يتوقّف، حتّى بدأ يشعر بحرارة أنفاسه. حملت له الريح رائحة البحر. فكّر بسرعة في مفاوضات وتدابير الصّيّادين مع هذا الهيجان المائي اللامنتهي. فكرة أنه يتواجد وحيداً في هذا الزقاق الخلفي، وعثوره على محفظة نقود مسروقة مرمية على الأرض، وسماعه صوت هدير البحر، ذلك كلّه يجعله يُسرِع الخطى، فتلك أسوأ علامات سوء الحظّ يمكن تصوّرها. وحين خروجه إلى الشارع الكبير، رأى شابّاً يجري بطيش، ويطارده

عدّة أشخاص ويصرخون: "أمسكوه، أمسكوه." ثمّ توقّفوا عن الجري، وبقوا ينظرون إليه مشدوهين وهو يبتعد عنهم على الطريق المنحدر، وكأن الأمر يتعلّق بصاروخ انطلق، وليس بإنسان يجري. حاول أحد السائقين صدمه بسيّارته، لكنه اجتنبه بخفّة قلّ نظيرها. كان الشّابّ مذعوراً، ومن فمه يتصاعد دخان شبيه بدخان الموقد، كان داخله كأنه يحترق. ثمّ اختفى عن الأنظار. هل الأمر يتعلّق بسرقة أو انتقام؟ أوقف تينيسي أسئلته، ثمّ انعطف يساراً، وتوقّف عند مكتبة صغيرة، اشترى منها جريدَتَيْن، وتوجّه رأساً نحو المقهى الذي جنبها. كانت رائحة الخبز والحلويات تنبعث من مخبزة قريبة. في داخل المقهى، يجلس صامويل بيكيت وزوجته سوزان دوشوفو ديماسنيل. اسمها طويل، كان يصعب على تينيسي نطقه كاملاً، لذلك كان يكتفي بتسميتها سوزان دوشوفو، أو السّيّدة سوزان بيكيت في أحيان أخرى. كان بيكيت يضع بيريه سوداء، وسوزان إلى جنبه صامتة. تكبره بستّ سنوات، وذلك ظاهر بشكل صارخ. بقي تينيسي يتصفّح الجريدة وبين حين وآخر يلتفت إلى بيكيت، فيجده منهمِكاً في الكتابة على كرّاسة جيب زرقاء صغيرة. أخرج تينيسي من جيبه قلماً، وسجّل ملاحظة على الجريدة، ثمّ وضع سطراً تحت فقرة كاملة. تينيسي هو الكاتب الأمريكي الوحيد الأعسر. التفت مرّة أخرى، ورأى بيكيت يحكّ مؤخّرته بيده اليسرى، فابتسم تينيسي، كم مرّة نصحه بزيارة الطبيب لعلاج حكاك المؤخّرة الذي يعاني منه منذ سنوات. ابتسم تينيسي من جديد، وهو يداعب شاربه، ليخفي الابتسامة عن بيكيت الذي رفع رأسه نحوه، وهو، في الحقيقة، ينظر إلى حركة الشارع في الخارج. تلك الحركة التّلقائيّة المنسابة هي حقل الإلهام بالنسبة إليه. آلاف الحركات تتمّ أمامه، كل حركة تختلف عن الأخرى. فجأة يصبح ذهنه ممتلئاً بالأفكار العجيبة التي لا يمكن أن تخطر له وهو داخل غرفة الفندق. أطلّ برأسه حين قطع الطريق ثلاثة كلاب

هزيلة، وترتجف من البرد. عاد إلى كرّاسته، وسجّل شيئاً. أطلّت سوزان بدورها إلى حيث رأى صمويل، فرأت ما رأى، وأطالت النظر أكثر، ماذا سيحصل للكلاب بعد حين؟ تينيسي ينظر إليها أيضاً، وسوزان تنظر وتحكّ شَعْرها، وبيكيت يكتب. كتب هذه المرّة شيئاً طويلاً في كُرّاسته. وحين شعر الكلاب الثلاثة أنهم بأمان قطعوا الطريق نحو الرصيف، حيث وقفوا وبدؤوا يتثاءبون. لم يخطر ببالها أن تنبح، فالنُّباح يتطلّب طاقة وقوّة. سأل بيكيت زوجته سوزان: "متى تكفّ الكلاب عن النُّباح؟"، فأجابت دون أن ترفع رأسها عن كأس الشاي الذي أمامها: "حين تكون جائعة." رفع بيكيت حاجبَيْه، وكتب شيئاً.

بسبب المطر الذي بدأ ينهمر بقوّة اختبأ الكلاب في باب عمارة كان مفتوحاً، وانتقل تينيسي إلى الداخل، وجلس جنب طاولة بيكيت وسوزان، بعد أن حيّاهما. لكن بيكيت نهض نحوه وهو يبتسم مرحّباً به بحرارة، فيما اكتفت سوزان برسم ابتسامة خفيفة على وجهها الأصفر النحيل. كانت ابتسامة شبيهة بابتسامة شخص نائم يحلم. وحين شعرت بالبرد دعت صمويل إلى العودة إلى الفندق. تردّد قليلاً، ثمّ وضع كرّاسته في المحفظة الجِلْدِيَّة، وانصرفا وهما يمسكان بعضهما تحت مطر غزير. نظرت سوزان لصمويل، وسألته: "هل تظنّ أن الكلاب يمكن أن تصبح كلاب صيد؟" لم يجبها إلا بعد أن اجتازا الشارع إلى الرصيف الآخر: "يجب أن نعرف أوّلاً هل تريد هي ممارسة الصيد؟ لا شكّ أنها تشعر بأن عليها أن تفعل شيئاً، لكن سنّها لا يسمح. أنا أنصحها بأن تكتب سيرتها الذّاتيّة. هذا أهمّ عمل يمكن أن تقوم به الآن. هاهاها". ثمّ انطلقا نحو الفندق دون أن يقولا شيئاً. مرّا من الطريق المختصرة التي كانا يمرّان منها السنة الماضية. وهي نفسها التي عثر فيها تينيسي على محفظة النقود الألمانية المسروقة. كتابة السيرة الذّاتيّة. حين نطق بيكيت بهذه الجملة، كان قد أعلن أنه لم يعد ممكناً

إهدار الوقت. هذه هي فلسفة كُتّاب السيرة الذّاتيّة واليوميات الخاصّة: الحريق نشب في الوقت، يجب إطفاؤه وإسعاف الوقت. بدأ بيكيت يفكّر في موته. قال هذا الأمر الخطير لسوزان التي عدّته أمراً مبتذلاً. وقفا تحت شجرة، لا يتسرّب منها المطر إلا في قطرات بحجم الماء الذي يتسرّب من سقف بيت فقير. طرأت في رأسه فكرة: هذه شجرة العالم. كثيراً ما وقف الأنبياء تحت الأشجار حين لا يعرفون ماذا يفعلون وهم في منتصف نبوتهم، أو حين تحرقهم شموس الأصياف. بيكيت وسوزان يحتميان من المطر. فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان، مرّت سيّارة مسرعة، وحملت بركة ماء من الشارع كاملة، وبلّلتْهما بمائها المختلط بالتراب. نظر بيكيت إلى معطفه، وسوزان إلى حذائها. كانت ترتدي حذاءً صيفياً من الجِلْد الصقيل اللامع. شعرت بالرعب. هكذا يظهر الناس في طنجة وهم في حالة اشتباك دائم مع السّيّارات المنطلقة بجنون، كأنها صاروخ سيصعد إلى السماء، كأنها عربات، لا تنوي البقاء على الأرض.

مرّ بائعٌ يدفع عربة وهو يصرخ بصوته أبحّ عن سلعة لم يتبيّنها تينيسي. حين اشتدّ المطرُ بدأ البائع يدفع العربة بقوّة، ويتعثّر في كلّ خطوة. عاد للدَّفْع بقوّة، كأن المطر يطارده. بقي تينيسي يراقب هذه المطاردة الغريبة. بدا البائع كأنه يجري بعربته في متاهة أو داخل زوبعة. فجأة هاجمته عاصفة، انقلبت معها العربة، فأصبحت عجلاتها فوق، وضاعت البضاعة في البرك المائية.

أحسّ تينيسي بضرورة إفراغ مثانته، لكنه لا يثق في قضاء حاجته في مراحيض المقاهي والحانات. وإذا اضطرّ إلى ذلك، فإن عليه أن يتأكّد من نظافة المراحيض. نادى على المرأة المكلّفة بالنظافة في المقهى، وطلب منها تنظيف المرحاض جيّداً، وأنه سيدخل لقضاء حاجته بعد دقيقة. حين

شاهد المرأة تخرج، وتشير إليه بالدخول، قام ودلف المرحاض، وأغلق الباب وراءه. جلس وفتح الجريدة، وبدأ يتطلّع إلى الصور، ويقرأ بعض الأخبار القصيرة. ثمّ رماها جانباً بعدما شكّ في أن جلّ أسماء الصّحفيّيْن هي أسماء مستعارة. سمع صوت خطوات امرأة النظافة أمام الباب. راحت، ثمّ عادت من جديد، وهي تدفع الباب بيدها لتتأكّد هل ما زال في الداخل. لا شكّ أنها تفعل ذلك، لأنها تنتظر منه أن يعطيها بعض المال مقابل الخدمة التي أسدتها له. أو أنها استغربت لتأخّره في المرحاض. فتح الباب، فوجد رجلاً آخر ينتظر دوره للدخول، ووراءه يوجد رجل آخر واقفاً. كان هادئاً، لكنْ، في نظراته علامات الشّرّ. أمّا الذي قبله، فكان مكتئباً وصامتاً، ولم يتحرّك إلا حين خطا تينيسي خطواته نحو القاعة التي تتوسّط المقهى. جلس في مكانه، وحين رفع رأسه رأى المرأة تنظر إليه بجوع شديد إلى بعض النقود. اضطرّ لمناولتها بعض الدراهم التي كانت في متناوُل يده حين أدخلها في جيب السروال. عندها سألته بإنجليزية ضعيفة هل يريد ماء دافئاً، ليتوضّأ به؟ لكنه أجابها بالنفي، ذلك أنه قد أفرغ مثانته فقط، ولا حاجة للاغتسال. لكن ما أثار انتباهه الكيفية التي ضغطت بها المرأة على يده وهي تتناول النقود. وهي تتحدّث إليه كان النادل ينظر إليهما بانتباه، وكأنه أراد أن يسمع ما قالته له، إنه زوجها، كما سيعرف تينيسي فيما بعد من شكري. كان يراقبهما وهو عابس يراقب وجهاً مجهولاً يكلّم امرأته.

بقيت سماء طنجة تمُطر لوقت طويل. ممّا اضطرّ تينيسي للبقاء داخل المقهى، ينتظر شيئاً ما سيأتي رغم أنهما ليسا على موعد مسبَّق. بقي يقرأ في كتاب متوسّط الحجم، وينتقل إلى كرّاسة صغيرة لتسجيل أفكاره. ريح قوية يُسمَع صوتها من الداخل. كل شيء يتحرّك في الخارج بفعل قوّتها. تردّد في الخروج والنداء على سيّارة أجرة، لتوصله إلى فندقه.

أدار وجهه قليلاً، واستغرق في التفكير. أفكار كثيرة جعلته يقوم بحركات غريبة، كما جعلت عينَيْه تلمعان، وتنظران في كل شيء، وتطيلان النظر. أرخى القلم بين أصابعه، ثمّ أمسكه بقوّة مرّة أخرى. ثمّ فجأة قفز إلى ذهنه هذا السؤال المفاجِئ: "هل وصل بوروغ إلى طنجة؟" عليه تهييء مبلغ من المال، ليُسلّمه له، فقد اتّفقا على إرجاع نصف المبلغ إلى بولز، الذي ينتظر هذا الموعد على جمر مشتعل. لكن الخوف راوده من تلاشي هذا المبلغ أيضاً، فهو شبه مقتنع أن بوروغ سيصل إلى طنجة وهو في حالة إفلاس تامّة. لا بدّ أن يفعل شيئاً حتّى لا يضع ماله ومال بولز مرّة واحدة. وبورز يعرف أن تينيسي لن يطالبه بإرجاع المبلغ كاملاً، أو نصفه أو ربعه. فغايته أن تعود العلاقة جيّدة كما كانت بين بولز وبروز.

في تلك اللحظة، دخل إلى المقهى بوغالب ساعي البريد، وهو يبحث عن تينيسي في زوايا المقهى. لوّح له تينيسي مطوّلاً حتّى رآه بوغالب، فتوجّه نحوه. دعاه للجلوس، وهو يسأله:

- كيف حالكَ، بوغالب، هل من جديد؟

- أهلاً، سيّد تينيسي، أنا بخير. جئتُ لأخبركَ بأن تمرّ إلى مكتب البريد، هناك رسالة مضمونة لكَ من طرف جاك كيرواك.

- جاك كيرواك؟ جيّد. إني أنتظرها. أشكركَ. اطلب شيئاً.

- عذراً سأذهب الآن، تنتظرني أشياء مستعجلة عليّ قضاؤها هذا الصباح. مع السلامة.

رغم أن تينيسي قال لبوغالب إنه ينتظر رسالة من جاك كيرواك، ففي الحقيقة الأمر ليس صحيحاً. كما أنه رغم الحماسة التي أظهرها أمام

بوغالب، فهو يكره بشدّة التّوجّه إلى مركز البريد، بسبب سوء معاملة الموظّفين له منذ أن توصّل بمجلّة، تضمّ صوراً بورنوغرافية العام الماضي، ورفض أحد الموظّفين تسليمها له، لولا إلحاحه، وعَدّه للأمر بمثابة انتهاك لحقوقه، وتهديده باللجوء إلى الشرطة أو القضاء أو السفارة الأمريكية. وبأنه سيُقيم الدنيا ولن يقعدها، إذا لم يتسلّم الطرد البريدي الذي جاء باسمه.

ما الذي يمكن أن تحمله له رسالة من كيرواك؟ فهو شخص معروف بعدم تعاطيه لكتابة الرسائل. وهو على النقيض مثلاً من غينزبورغ الذي يحبّ كتابة الرسائل التي يعدّها عملاً إبداعياً، ووثيقة يمكن للمرء الاحتفاظ بها ضمن إرثه الشّخصيّ. نهض بسرعة، وتوجّه إلى الخارج، وبقي ينتظر سيّارة أجرة، لتنقله إلى مركز البريد الذي ظلّ يُفضِّل الذهاب إليه سيراً. لكن الأمطار غزيرة والريح قوية وساعة إغلاق الإدارات اقترب.

امتلكه تأثّر غريب وهو يقرأ في رسالة كيرواك أن الشيك الذي أرفقه بالرسالة هو خاصّ ببوروغ الذي يعيش هذه الأيّام وضعاً صعباً. وأنه لو كان بحوزته مال كثير، لضمّ الشيك مبلغاً أكبر. وبالإضافة إلى تسليم الشيك لبوروغ، توسّل إليه أن يتوسّط بينه وبين بولز حتّى تعود علاقتهما كما كانت أو أقوى. فبولز يسيء تقدير بوروغ، وهذا الأخير يعرف ذلك ويؤلمه كثيراً. لكن تينيسي بقي متوقّفاً لوقت أطول، وقلبه يخفق بقوّة أمام هذه الجملة: "لقد ارتكب بوروغ أموراً فظيعة، ستعرفها في الوقت المناسب. لذلك، فغير المساعدة، لا تُقدّم له شيئاً آخر، لأنه يحتاج إليها فقط. فهي وحدها كافية. سَاعِدْ بوروغ، صديق عمرنا، يا تينيسي، ساعِدْه أشدّ ما تكون المساعدة."

أشعلَ تينيسي سيجارة، وصبّ الويسكي في الكأس، وبقي في غرفته يدخّن ويشرب وهو يفكّر في كلمات كيرواك. ما هذه الأمور الفظيعة التي

ارتكبها بوروغ إلى درجة أن كيرواك تحرّك بهذه الطريقة الغريبة عنه؟ ومن أين له بهذا المبلغ من المال؟ هل اقترضه من أجل مساعدة بوروغ؟ ربمّا. هل أخذه من ناشره كمُقدّم على رواية قادمة؟ أم هي حقوق ترجمات روايته "الطريق" التي جابت سُمعتها الأدبية الآفاق؟ وهل يعلم بوروغ بهذا المبلغ؟ ثمّ لماذا لم يبعث كيرواك الشيك إلى بوروغ مباشرة؟

إن الجواب عن السؤال الأخير هو من أسهل الأجوبة. فخوف تينيسي من أن يضيّع بوروغ المال هو الخوف نفسه الذي يقضّ مضجع كيرواك. ثمّ إن بوروغ لم يصل إلى طنجة بعد. ورسالة كيرواك تؤكّد أن بوروغ قادمٌ إلى طنجة، ممّا لا يدع مجالاً للشّكّ. فالريح قادرة على أن تنقل بورز إلى أيّ مكان آخر.

هل معنى ذلك أن بإمكان بوروغ أن يُغيِّر وجهته إلى حيث تقوده الرياح على السفينة التي توجد على متنها فتاة صينية؟ هل معنى ذلك، أيضاً، أن يترك بوروغ هؤلاء الأصدقاء كلهم ينتظرونه على رصيف الميناء، أو في غرف بيوتهم أو في الفنادق فيما هو مع يوي تشين في غرفته الضّيّقة بالسفينة، أو أمامها في الحانة، يكرع الكأس تول الأخرى، وينقّب بشاعرية نادرة في ماضيه وعلاقاته السابقة؟

كان تينيسي طوال الأيّام الماضية يريد زيارة بولز في بيته، لكنه كان يعجز عن إيجاد سببٍ لزيارته أو تفسيرها لنفسه أوّلاً، ثمّ لبولز ثانياً. فهو يبقى وحيداً في البيت، يشتغل طوال النهار حتّى حُلول الليل، منهمِكاً في وضع أشياء كثيرة على الأوراق، أفكارٌ وألحانٌ تخرج من العدم أو تأتي من أقاصي الكون إلى ورقته، فيكون سعيداً بها سعادة نادرة. منذ موت جين وهو على حالته هذه، وللكثيرين الذين يقولون إن بول لم يحزن على موت جين، يملك تينيسي الشيء الكثير يودّ قوله لهم. إن بول بعد موت

جين أصبح أكثر هُزالاً وكآبة وانعزالاً. وقد نصحه طبيبه بالإكثار من السفر وممارسة الرياضة وزيارة الأصدقاء. لم يجد دواءً مناسباً يصفه له غير ذلك. لكن بول لم يعد قادراً على مغادرة عتبة البيت، ولا على استقبال أحد، كما أن وضعيّته المالية تدهورت كثيراً، لأن وتيرة عمله تلاشت. أين هو بول النشيط الذي كان يعمل ويسافر كأنه شابّ في العشرين من العمر؟ لقد رحل بول القديم مع رحيل جين، وجاء مكانه بول هذا، المتلاشي والغريب عن نفسه. لذلك فهو يريد ماله من بوروغ الأكثر شقاءً. وها هي رسالة من كيرواك تقول إنه ارتكب أموراً فظيعة. تُرى ماذا تكون؟

وحين يبعث كيرواك شيكاً لمساعدة بوروغ على تسديد ديونه، وحين يريد تينيسي منح بوروغ نصف المبلغ الذي اقترضه من بول، فإنهما، تينيسي وكيرواك، في الحقيقة لا يساعدان بوروغ، بل بول الذي أصبح أكثر إثارة للشّفقة من بوروغ. هذه أمور يعلمها جيّداً تينيسي، لكنه لا يريد إشاعتها، لأنه يظنّ أن إشاعة مثل هذه الوضعيات هي تشهير بالناس، وخصوصاً في حالة بول الذي عاش دوماً عزيزاً كريم النَّفْس.

أراد تينيسي أن يزور بول في أقرب وقت للاطمئنان عليه، وليرى كيف يتصرّف هذا المريض الأمريكي في هذه الأيّام الطويلة المتثاقلة. يريد أن يراه ويتحدّث معه، الحديث الذي يعرف أنه سيبدأ، أو ينتهي، بالسؤال عن بوروغ. حين سيُطرَح هذا السؤال، الجوهري، سيُطمئنه عن ماله الذي سيقبضه كاملاً خلال يومَيْن، بحضور ثلاثتهم: بول، ويليام وتينيسي.

***

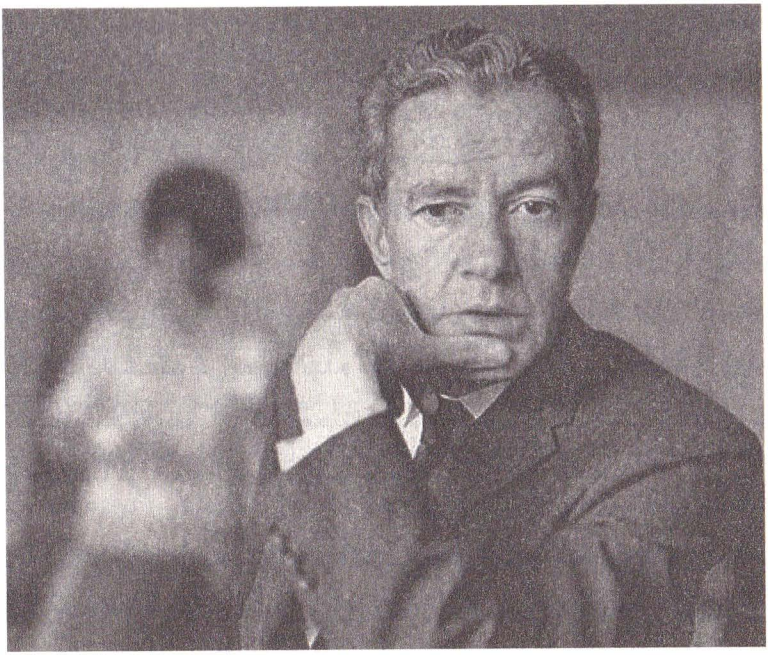

صورة لخوان رولفو

من الشجرة إلى الفندق

مَنْ يستطيع أن يعرف لماذا يحدِّق الناس في وجوه بعضهم رغم عدم معرفتهم ببعض؟ هذا سلوك غير واضح منتشر كثيراً عند الناس في طنجة. لذلك يفضِّل تينيسي عدم النظر إلى الوجوه التي تقابله في كل مكان. الوجوه الوحيدة التي ينظر إليها وتُطبَع في ذاكرته هي وجوه بائعي السمك في السوق المركزي. كان يجد فيها أحاسيس استثنائية غير موجودة عند الباعة الآخرين، ربمّا لأنهم يبيعون كائنات ميتة، أو بتعبير آخر، كانت حَيّة، فماتت، فموتها هو ما يجعلها صالحة لمقايضتها بالمال. هذا ما توصّل إليه وهو يراقبهم بروية كبيرة. وعندما يعود بذاكرته إلى الوراء، يجد أن هذا هو انطباعه عنهم. فحتّى في شيكاغو أو نيويورك أو باريس يحمل بائعو السمك الأحاسيس نفسها نحو الزبائن أو نحو البضاعة التي يتاجرون فيها. ربمّا صيد السمك، وبيعه، يورث قِيَماً جيّدة، لكنْ، لا يتمّ الانتباه إليها.

يذكر أنه وهو طفل في المدرسة سألتهم إحدى المدرّسات عن المهنة التي يريدون امتهانها في المستقبل. كانت الأجوبة تتنوّع بين رجل المطافئ، وربّان الطائرة، والشرطي، والطبيب، إلا واحد قال إنه يريد أن يصبح صيّاد سمك. منحتْه المدرّسة ابتسامة عطوفة، وقالت: "سأنتظرك في الميناء لأخْذ سمكي المفضَّل." من يومها وذلك التلميذ يأتي في كل مرّة بسمكة في محفظته، ويسألها: "هل تُحبّين هذا النوع من السمك؟"

كانوا يضحكون جميعهم على هذا التّصرّف الغريب. إلى أن بلغ الأمر إلى إدارة المدرسة، فاستدعاهما المدير، لأن روائح حجرة الدَّرْس أصبحت نتنة برائحة السمك، وأيضاً حقيبة التلميذ "مارك". من يومها ولجنة من الإدارة تزور حجرة الدَّرْس لتفتيش حقيبة "مارك".

نقلتْه أسماك مارك إلى بول الذي يحبّ السمك كثيراً. وقد كان يوصي خادماته دوماً بطَهْيه وفق الطريقة المغربية، لأن إحداهنّ اجتهدت ذات يوم، وبحثت عن طريقة تهييء السمك على الطريقة الأمريكية، وحين قُدّمت السمكة على مائدة بول وجين غضب كثيراً من هذه الطريقة السّيّئة التي حين نقارنها بالطريقة المغربية نُقلع عن استعمالها إلى الأبد.

سمكة مارك أيضاً جعلتْه يتذكّر أنه على موعد على مائدة عشاء مع بيكيت وبول وجوني. إذنْ، هذه هي الفرصة السانحة والجيّدة التي ستجعله يرى بول ويكلّمه في كل ما يريد أن يكلّمه فيه. سيقول له كل شيء، الكلام الجيّد كله، الأفكار الرائعة كلها التي يحبّ سماعها.

في أثناء مغادرة تينيسي المقهى مباشرة بعد أن كلّمه بوغالب عن وجود رسالة في مركز البريد، كان المطر مازال يهطل بقوّة. لم يستطع بيكيت وزوجته سوزان مواصلة السير إلى الفندق. فدخلا محلاً صغيراً، يبيع الخبز الفرنسي، حيث اختارت سوزان بعض قطع الحلوى وبعض الخبز. ولم يستطيعا متابعة السير إلا حين خفّ المطر قليلاً. كانا يحذران ماء البرك الذي تقذفه السّيّارات حين تمرّ مسرعة دون مبالاة للمارّة على الرّصيف.

حين يسقط المطر يتغيّر كل شيء في طنجة. يخاف الجميع من الشوارع والطُّرُقات المليئة بالحُفر، فهي تمتلئ بالماء، ولا يصبح بمقدور أحد تقدير حجم الحفرة ولا عمقها. سيضحك حتماً مَنْ يرى بيكيت وهو يطلّ برأسه

نحو الأعلى، ليرى هل كفّ المطر عن الهطول أم لا. أمّا سوزان، فقد كانت تحثُّه على متابعة السير وهي تغطّي الحلوى والخبز بمنديلها الأحمر، فالمسافة قصيرة من الشجرة إلى الفندق.

كان برنامج بيكيت وسوزان مشاهدة مسرحية في مسرح سيرفانتس، ثمّ التّوجّه إلى "كاسا دي إسبانيا" لتناوُل وجبة العشاء صُحبة تينيسي وبولز وجان جوني. قال لهما بولز إنه سيكون رفقة مفاجأة ستُسعد الجميع. لكن سوزان حذّرت بيكيت حتّى لا يعقد الأمل على مفاجأة بولز، فمفاجآته دائماً سيّئة، لا تُسعِد، بل تُحزن. وأضافت أنها لا تعرف كيف يعدّها مفاجأة سارّة ستُسعِد الجميع. فهي لا تتوقّع أن تكون مفاجأة جيّدة، بل إن حتّى العشاء الذي دعا إليه ضيوفه سيُضطرّون إلى أداء ثمنه، بعد أن يكون قد شحن رؤوسهم بالحكايات الرديئة عن الموسيقى والمسرح والكتابة. وهو في ذلك يستغل قلّة كلام بيكيت، وعزوف جوني عن الخوض في أيّ حديث عن الكتابة، ونوبة الضحك والسخرية التي تنتاب تينيسي بعد أن يشرب كؤوساً كثيرة من الويسكي.

وجّهت سوزان سؤالاً مُفاجِئاً لبيكيت:

- هل ستبقى في حياتكَ مفاجآت سعيدة بعد موتي؟

أجابها وهو يضمّها إلى صدره:

- إذا رحلتِ في يوليوز/ تمّوز، سألحق بكِ في دجنبر/ كانون الأوّل من السنة نفسها.

- ولماذا تنتظر حتّى شهر دجنبر/ كانون الأوّل؟

- لأنه شهر الاستمرار، ينتهي ليبدأ زمن جديد.

- أستغرب كيف أن بولز يُحدِّث الناس عن المفاجآت السعيدة، ولم يمضِ على رحيل زوجته جين أكثر من شهرَيْن.

- أنا مضطرّ لمجاملته، والمحافظة على أدبي معه، بل وتلبية دعواته كما يلبّيها الأمريكيون. ساعة معه وأعود إليكِ، حبيبتي، وإن شئتِ، تعالي معي، فأنتِ مَدعوّة أيضاً.

- لا قدرة لي على السهر معكم. وإن أتيتُ معكَ، سأشرب بيرة واحدة وسلطة وأنام على الكرسي، وسيجدها تينيسي فرصة للسخرية منكَ ومنّي. هذا إضافة إلى صوته الصارخ الذي يخرج من فمه مع دخان السيجارة.

كان عقل سوزان منشغلا جدّاً بتينيسي. فهي مثل طفل تدرك كل شيء، لكنْ، لا يظهر أنها مدركة لأيّ شيء، ومن الصعب أن تصرّح لبيكيت بما تدركه، لأنه سيطالبها بالحجّة التي تدعم إدراكها. لكنها سألت بيكيت:

- هل سيأتي شكري إلى العشاء؟

- لا أظنّ، سمعتُ تينيسي يتحدّث عن شخص آخر هو أيضاً اسمه محمّد. محمّد المرابط كما أظنّ.

- نعم، سمعتُ عنه من جين. كان يتردّد على بيت بولز. شخص أنيق ومؤدّب. له وجهٌ إسبانيّ شديد الصفاء. يُكثر من أكل السلطات والسمك وتدخين القنّب الهندي المعروف هنا بمخدّر "الكيف".

تتذكّر المرابط جيّداً. كانت سوزان قد بكت في حضرة جوني وهو يحكي عن محنة الفلسطينيّيْن. كان قد حضر ذلك اللقاء في مقهى "الحافّة" محمّد شكري وبولز وتينيسي والمرابط وبيكيت وسوزان. حكى لهم جميعاً عن أفظع مأساة إنسانية يسبّبها الاستعمار. وما هي إلا دقائق

حتّى انضمّ لحلقة جوني العديد من الشّبّان والسّيّاح الأجانب. استمعوا لسَرْده وموقفه دون معارضته. كان هناك أيضاً بين الحاضرين عاشقان إسرائيليّان يعيشان في باريس، استمعا لجوني دون معارضته الرأي، كان أيضاً خوان غويتيسولو من بين الحاضرين.

وصل بيكيت وسوزان إلى الفندق، وعجزا عن الخروج مرّة ثانية للذهاب إلى المسرح. ففضّلت سوزان تهييء قهوة ومشاهدة التلفزيون. فيما خرج بيكيت للعشاء في "لاكاسا دي إسبانيا". كان بولز قد نبّهه إلى عدم إخبار أحد، خصوصاً محمّد شكري، بمكان العشاء. فهو قد حجز لستّة أشخاص فقط، هم: بيكيت، تينيسي، جوني، بولز، سوزان، والشخص السادس هو المفاجأة.

يعرف القَيّمون على المطعم أن بولز يرفض مكاناً قريباً من المدخل أو من الحمّام. فمكانه المفضَّل هو تلك المائدة أسفل لوحة فنِّيَّة كبيرة، قرب بيانو ضخم، تعزف عليه سيّدة إسبانية، اسمها "خوانا" أرقى الأغاني والمعزوفات الأوروبية. هذه هي الخدمة التي يقدّمها المطعم لبولز وضيوفه. كانت جين تحبّ خوانا كثيراً، وتطرب لمعزوفاتها، لذلك بكت حين سمعت بموتها، وفي ليلة دفن جين نفسها، عزفت خوانا مقطوعة حزينة لـ "هيربيرت فيانا". كان أغلب الموجودين في تلك الليلة يعرفون جين بولز، وحزنوا لموتها، ومَنْ كان منهم يحفظ كلمات الأُغنيّة ردّدها مع عزف خوانا، التي أطالت العزف، وردّدت بعض المقاطع عدّة مرّات. هذا العزف الشّجيّ الذي تَبرُعُ فيه هذه الفنّانة الإسبانية هو ما يجعل الكثيرين يُفضِّلون السهر وتناوُل العشاء في هذا المطعم.

كانت جين هي التي تتكلّف بالحجز حين تقرّر هي وبولز تناوُل العشاء، أو حين يستدعيان ضيوفهما القادمين من مختلف بلدان القارَّتَيْن الأوروبية

والأمريكية. وكانت تكون متأكّدة بأنها ستجلس رفقة ضيوفها على أفضل طاولة، وسيستمعون لأفضل عزف وأرقاه. هذا إضافة إلى الترحيب الحارّ الذي يقابلهم به مدير المطعم كارلوس، الذي كان يجده بولز شديد الشبه بالكاتب المكسيكي خوان رولفو، لذلك حين كان يريد أن يقول لأصدقائه: "نلتقي في "كاسا دي إسبانيا""، يقول: "نلتقي عند خوان رولفو". وبيكيت يعرف هذه الشفرة. وذات ليلة جاء بولز رفقة جين وفي يده صورة كبيرة لخوان رولفو بالأبيض والأسود، يرتدي فيها خوان جاكيتاً أسود، وقميصاً أبيض، ويداعب شفته السفلى بأصابعه. اندهش كارلوس كثيراً لدقّة الشبه بينهما. فقام على التّوّ بتعليقها قرب اللوحة الفنّيَّة الكبيرة، مقابلة تماماً لباب الدخول. وقد فضّلها بولز عن صورة أخرى لرولفو يجلس فيها على قبر ووراءه الصليب. في الحقيقة جين هي مَنْ رفض هذه الصورة التي اقترحها بول، فاستبدلتها هذه، فكان اختياراً موفّقاً.

أحبّ بيكيت الصورة كثيراً، واندهش بدوره للشّبه الدقيق بين كارلوس ورولفو. نهض من مكانه، ووقف أمامها يتأمّلها، واستدار إلى كارلوس الذي كان على بُعْد خطوة واحدة منه يتأمّل انطباعه:

- أشكّ أنكَ كارلوس، أنتَ هو الكاتب المكسيكي خوان رولفو متنكّراً في صفة مدير مطعم. هذه هي خطّتكَ، أليس كذلك؟

كان كارلوس يحبّ كثيراً بيكيت، لذلك كلّما جاء إلى مطعمه سارع إلى وضع باقة زهور وحفنة من الفواكه على مائدته. ومنذ أن علم أنه لا يحبّ المشمش، لم يعد يضعه ضمن الفواكه.

يتذكّر كارلوس أنه حين سأله عن سبب رفضه للمشمش أجابه بأنه لا يصلح للبشر، وأنه يتصوّره مناسباً للقردة. كان بيكيت يحبّ العنب كثيراً،

والشرائح الرقيقة من لحم الخنزير المقدّد. هذه هي لوحة بيكيت: نبيذ أحمر، عنب ولحم خنزير مقدّد. وأحياناً يطلب الخصّ أيضاً. يضع كارلوس طلبات بيكيت، ويتراجع قليلاً إلى الوراء، ويبدأ يفرك يَدَيْه وهو ينتظر ظهور علامات الرضا والسرور على وجه بيكيت، الذي يشكره بالقول:

- شكراً، يا صديقي خوان رولفو، أنتَ كاتب، لذلك تعرف طعام الكُتّاب.

يتراجع كارلوس مسروراً، عائداً إلى تفقّد المطعم، وإعطاء التعليمات للعاملين والعاملات بالمطعم، للعناية بباقي الزبائن، فالليل في بدايته، والبطون قادمة أفواجاً لتذوُّق فيليه الدجاج الحبشي الملفوف، ولحم الخنزير المقدّد، والبابيلا، وجبن الريكوتا والباذنجان والخصّ، تلك نماذج من الأطعمة التي تُقدَّم مع نبيذ السهرة القادمة.

وصل بيكيت قبل الآخرين وبقي على المائدة يُقلّب أوراقاً كثيرة، أخرجها من حقيبته الجِلْدِيَّة. وبين حين وآخر، يرفع رأسه، ويتمايل بطريقة خفيفة، تكاد تكون غير مرئية على إيقاع العزف الخافت لخوانا. وكلّما التفتت خوانا ورأت بيكيت يطرب لعزفها، ازدادت أصابعها خفّة وإبداعاً، وحملتها أجنحة خيالها إلى السماء العالية وإلى النهر الطويل. إذ إن اللحن يحكي عن السماوات والأنهار التي تشقّ طريقها وسط الأراضي والمروج كلها في الكون. تُحلِّق بأجنحتها مع خيالها، ثمّ تعود وتحطّ قرب بيكيت، لترى أثر عزفها على هذا العبقري الذي يميل برأسه الطويل يُمنةً ويُسرة. خوانا تعزف، بيكيت يطرب. إلى أن سُمعَت أصوات خطوات في الباب. ها قد جاء جوني. رحّب به كارلوس وهو يفتح ذراعَيْه لعناقه. ابتسم جوني، ومدّ وجهه للقُبلة الإسبانية الدافئة والصادقة. أمسكه كارلوس من كَتِفَيْه، عانقه، ثمّ قبّله وهو يسأله:

- أين اختفيتَ، يا سيّد جان؟

- كنت في إسبانيا رفقة خوان غويتيسولو.

- جولة عمل؟

- نعم، لتقديم ترجمة كتابي "أسير عاشق" إلى الإسبانية.

- أين هو خوان الآن؟

- لقد عاد إلى فردوسه: مراكش.

- آهٍ، لو جاء معكَ، اشتقتُ إليه، يا سيّد جان.

- إذا أردتَ، نزوره الأسبوع القادم. أنا ذاهب إلى مراكش.

توجّه جان إلى الطاولة التي يجلس فيها بيكيت الذي تفاجأ بمظهره الغريب. لقد بدا على جان هُزال ملحوظ. لكن بيكيت حين تفحّصه جيّداً لاحظ أنه يلبس ثياباً مقاسها أكبر من جسمه الضئيل. ذلك ما جعله يبدو هزيلاً وعلامات المرض بادية عليه. جاء كارلوس، ووضع أمامهما قنّينة ماء وكأسَيْن كبيرَيْن. وسألهما:

- متى يصل الآخرون؟

صمتا معاً، لأنهما لا يعرفان بالضبط في أيّ ساعة يصل بولز وتينيسي، فهما سيأتيان معاً بدون شكّ. وحين لم يسمع كارلوس جواباً، اختفى بسرعة من أمامهما، وعاد رفقة النادل الذي حمل صحوناً صغيرة من البابيلا. نظر جوني لِمَا وُضع أمامه، والتفت لينظر إلى كارلوس نظرة تساؤل، وربمّا استنكار. قال كارلوس لجان جوني: "انسَ النبيذ الأحمر. سأقدِّم لكم البابيلا."

فأجابه جوني وكأنه كان مستعدّاً لأوامر كارلوس: "تقصد أن البابيلا تتناغم مع نبيذ "بروفانس"؟". لكن كارلوس اقترح شيئاً آخر: "دعني، يا جان، أقترح عليكما كأساً من "باتريمونيو"، ثمّ "لانغدوك" وحدّدا ما تفضّلان بينهما."

ثمّ استمرّ كارلوس في إحاطتهما بعناية خاصّة. في البداية، قدّم لهما كأساً من نبيذ بروفانس وصحناً من السلطة. غرز جوني الشوكة في فجلة صغيرة، ثمّ أتبعها بجرعة صغيرة، حرّك معها شَفَتَيْه بسرعة. رفع رأسه نحو كارلوس، وأشار برأسه علامة على الرضا.

سأله كارلوس:

- لماذا تأخّر بولز وتينيسي؟

حدَّق جوني في السقف، ثمّ نظر إلى بيكيت الصامت، وأجاب:

- لا أعرف حقّاً، لكنْ، دقائق، ويصلون. الكل متحمّسون للقاء في مطعمكَ، يا كارلوس.

انصرف كارلوس، وأخرج جوني كرّاسة صغيرة، وبدأ ينظر فيها إلى مواعيده. غداً صباحاً سيلتقي شكري، وفي المساء، سيلتقي شخصاً قادماً من العرائش، كان قد التقى به في باريس السنة الماضية. كانت شفتاه تتحرّكان بسرعة وهو يقرأ الأسماء والتواريخ والساعات والأماكن. حرّك لسانه داخل فمه، وشرب جرعة كبيرة من كأس النبيذ، ثمّ حمل الشوكة إلى فمه وتذوّق الفجل الصغير الأبيض مثل الثلج. شعر بلسعة هواء بارد اجتاحت القاعة فجأة، ولمّا التفت رأى سيّدة تفتح نافذة مقابلة للباب الرئيس. لا شكّ أن الجبال القريبة قد دُفنت تحت الثلج.

بعد لسعة البرد، اجتاحت القاعة خطوات أحذية كثيرة، التفت جوني وبيكيت معاً، فرأيا تينيسي وبولز. نزع تينيسي وبولز معطفَيْهما. تذكّر بيكيت أنه يرتدي معطفاً احتفظ به وبالبيريه. جلس تينيسي قبالة جوني، وبقي بيكيت قبالة بولز. أميركي أمام فرنسي، أميركي أمام إيرلندي. رفع بيكيت نظّارته إلى جبينه، ونظر وهو يبتسم ابتسامته الخفيفة المعهودة إلى بولز، ثمّ خفض عينَيْه إلى الطاولة. وحين بدأ تينيسي يسعل، نظر إليه بانتباه. ثمّ انتقل إلى جوني. ذلك كله دون أن يتمكّن أحدٌ من معرفة قول تلك النظرات المتردّدة. كأنه كان يحدس ماذا سيُقال في هذا العشاء الرّباعيّ.

جاء كارلوس من داخل المطبخ وهو يحمل كؤوس نبيذ وضعها، ثمّ صافح بولز وتينيسي، ثمّ جلس على كرسي وهو يسألهما عن الصّحّة والأحوال العامّة. ثمّ ملأ الكؤوس بالنبيذ اللّامع مثل الضوء. يعدّ كارلوس أن النبيذ الجيّد هو منبع اللقاءات الجيّدة، فإذا كان المنبع نقيّاً، فمجراه نقيٌّ أيضاً، وإذا كان عَكِرَاً، فمجراه عَكِرٌ أيضاً.

هذا أوّل عشاء يتناوله بولز عند كارلوس منذ رحيل جين. رفع الأربعة كؤوسهم، شربوها كاملة، وأعادوها فارغة. ثمّ نطق بولز:

- لديّ مفاجأة لكم هذا المساء، يا أمراء الحكاية. سيلتحق بنا شخص مغربي، اسمه محمّد المرابط، سيّد من أسياد الحكاية، وفارس من فرسان الذاكرة. شخص لا يخرج إلا بعد الغروب.

خارج المطعم كانت الشوارع والأزقّة شبه خالية من الناس والسّيّارات. مَنْ يملأ الأرصفة هم المتسوّلون الذين ينتشرون مثل القمل في جسد المدينة. نائمون، وحين يسمعون أصوات خطى تقترب، يرفعون الغطاء، ويطلّون برؤوسهم، ويبدؤون في التّضرّع.

بدأ الدخان يتصاعد من طاولة حلقة الأربعة. بولز يدخّن، تينيسي يدخّن. بيكيت في راحة مؤقّتة بعد تنبيه الطبيب. أمّا جوني، فإنه ينتظر أن تُملأ كأسه، كي يُشعل سيجاراً رفيعاً. تصاعد الدخان بقوّة بعد سحب نَفَس عميق من سيجارة تينيسي، فبدوا من بعيد كأنهم يحرقون الخشب. أشعل كارلوس الفوانيس الموجودة في المطعم كلها. بهذه الفوانيس المصطفّة في الجدار يبدو المطعم مثل طابق أرضي من قصر روماني.

حين دقّت الساعة العاشرة التحق محمّد المرابط بالمجموعة. كانت تبدو عليه علامات الانتشاء. قصر قامته جعل شبيهاً بشجرة مقطوعة. يستطيع هذا الفقير المعدَم أن ينتشيَ في أيّ ساعة يشاء. توطّدت علاقته ببولز بعد أن ساءت علاقة الأخير بشكري. الحكايات البائسة، ذلك هو توازن مخيّلة بولز. هذا الترحيب كلّه بالمرابط من طرف بولز دليل على خصوبة مخيّلته وذاكرته، وقبل ذلك، دليل على خصوبة حياته. لولا تلك الصداقة مع جين وبول بولز، لكان المرابط، في أحسن الحالات، بائعاً في متجر خمور. وهي متاجر كثيرة ومنتشرة على طول طنجة، يملكها يهود وإسبان وإنجليز.

خاض بولز وجوني وتينيسي وبيكيت في حديث عن الأدب، وبدأ المرابط، بعد ساعة من الحديث، يشعر بالوحدة والغربة بينهم. فكان يُطمر هذا الإحساس بالكأس تلو الأخرى. تسرّبت إليه بعض الأفكار، فأصبح في مستطاعه المشاركة بالرأي. ما أشدّ وحدة إنسان، لا يشارك الآخرين بأفكاره. وهي، على كل حال، أفكار بدت له مألوفة، سبق أن خاض فيها مع بولز وجين وويليام بورّوز. لو بقي صامتاً، لساءت حالته، لانكسر مثل قصبة تتلاعب بها الرياح.

إن كل ما سيقوله المرابط تلك الليلة في شؤون خطيرة يخوض فيها عباقرة عظام، على مائدة مليئة بالشراب الجيّد، نابع من أحاسيسه

الصادقة. كل ما عبّر عنه بإنجليزية صافية شبيه بحُلْم رآه عدّة مرّات. كان جالساً جنب تينيسي، وحين كان يطلب السماح له بفرصة إضافية لتوضيح فكرته، يمسك بيد تينيسي، كأنه يبحث عن طاقة أو إلهام. لكن بولز كان يُوقِفه عن الكلام، لأنه يعرف أن هذا الفيض المتلاطم من الكلمات والأفكار، وهذه الإنجليزية التي أصبحت فجأة طليقة على لسان المرابط، ما هي إلا نتيجة للسُّكْر الذي بدأ يظهر عليه. ودون تقديم، سألهم هل يريدون أكل وجبة سمك من طَهْيه؟ ردّ عليه بولز في الحال هيّا أن انهض إلى مطبخ كارلوس. كان كارلوس أيضاً يريد الحفاظ على مرح ضيوفه، وإزاحة المَلَل عنهم. لذلك، فالقبول بأن يدخل المرابط إلى مطبخه سبيل جيّد إلى تسليتهم. لكنه نصحه بعدم الرقص، فمعروف عن المرابط أنه يرقص برشاقة كلّما كان في حالة سُكْر. فأن يرقص المرابط، معناه إثارة جلبة، وكسر أطباق، وقلب طاولات، وربّما افتعال شجار مع زبون، قد يعترض عليه.

مال بيكيت على تينيسي، وقال:

- هذه مفاجآت فعلية.

كان بولز يصيخ السمع لما يقوله بيكيت لتينيسي، وهو متأكّد بأن الإيرلندي لن يقول شيئاً يُغضب الأمريكي، حتّى وإن كان يملك شيئاً يُغضبه. إضافة إلى أن بيكيت لا يحشر نفسه في الصراعات. فهو شخص متحفّظ جدّاً، ونادراً ما يُقدِم على إزعاج الآخرين. وردّاً على ملاحظته، قال تينيسي:

- في ذهن المرابط المزدحم حياة حزينة، يبحث فيها بولز عن حكايات وأناس من المستحيل أن تجدهم في أميركا أو فرنسا أو إيرلندا. داخل

حَنْجَرَته تقبع أصوات كثيرة. المرابط يشبه شكري، ويختلف عنه في آنٍ. إنه لون آخر في اللوحة المغربية، خطٌ جديد على جِلْد حمار الوحش. لكنه أقلّ عنفاً من شكري، أقصد عنف القول.

أعطى كارلوس للمرابط سمكة متوسّطة الحجم، وسكّيناً طويلة وحادّة، أخذها المرابط، وبدأ يُلوِّح بها في السماء مثل سيف، ثمّ ضبط حركته أكثر، وشقّ السمكة إلى نصفَيْن بخفّة مثيرة. صفّق له كارلوس، وقال له: "تابعْ، يا محمّد، إنها لكم، افعلْ بها ما شئتَ، وسأتذوّقها معكم."

كان كاركوس في البداية قد أخرج من الثّلّاجة سمكة أكبر حجماً، لكن المرابط رفضها وفضّل عنها هذه التي بين يَدَيْه الآن، ولمّا سأله كارلوس عن دافع هذا الاختيار، قال إن لون جِلْدها أكثر صفاء ونقاء من السمكة الضخمة. استغرب كارلوس لهذه الملاحظة الدقيقة، فسأله:

- هل كنتَ صيّاداً في يوم ما؟

فأجابه وهو يضحك:

- كنتُ صيّاداً في الماضي، وسأستمرُّ صيّاداً في الآخرة. أنتَ مَدعوّ هناك في وجبة سمك لذيذة مع صيّاد أبدي.

فجأة لم يعد المرابط ينتبه لوجود كارلوس جنبه وهو يراقبه. انسحب إلى البار، وصبّ له كأس نبيذ، وضعه قربه دون أن يقول كلمة واحدة.

كانت الموجة صاخبة في مائدة الأربعة صخباً أشاع جوّاً رائعاً في المطعم. خطا تينيسي نحو كارلوس، وسأله عن المرابط وسمكته، ثمّ توجّه نحو الباب حتّى خُيّل لبولز أن تينيسي سيغادرهم، لكنه عاد وجلس وأمسك بكأسه، وقرّبها من جوني الذي كان منغمراً في حديث ثنائي مع بيكيت.

ابتسم جوني ورفع كأسه وتذوّق منها جرعة صغيرة، والشيء نفسه قام به بيكيت. قال بيكيت بصوت خفيض:

- نخب الصداقة.

- جوني: نخب الثقة.

- تينيسي: نخب كُتُب الأدب.

-بولز: نخب الصداقة بين أميركا وفرنسا وإيرلندا.

لو كان المرابط معهم، هل كان سيهتف كما هتفوا:

- والمغرب؟

لو كان كارلوس، معهم هل كان سيتّبع خُطاهم:

- وإسبانيا؟

ونيابة عن خوان رولفو الذي يشبهه سيقول:

- والمكسيك؟

ستذكر ذاكرة كل واحد من هذه القبيلة المختلطة أنه في ذات ليلة شتوية، استضاف كارلوس، الذي سمّاه تينيسي ويليامز وبول بولز اسماً آخر، هو "خوان رولفو"، تيمّناً بالكاتب المكسيكي خوان رولفو، نظراً للشبه الكامل بينهما، في مطعمه بـ "لاكاسا دي إسبانيا" بمدينة طنجة، مجموعة من الكُتّاب اتّخذوا من الأدب مبدأ لهم. فأصبحوا يملكون العديد من الأدب والعديد من القُرّاء والمترجمين على امتداد العالم كلّه. لكنْ، مِنْ أَحَبِّ الأشياء إلى أنفسهم العيش في ظروف أدبية وتأمّل وضعيات الإنسان

وشروطه والكتابة عنها. تحدث أشياء كثيرة أمام أعينهم، فتتكوّن لديهم قناعة تحويلها إلى فنّ وأفكار.

جاء كالوس وقدّم لهم طبقاً من الفواكه وهو يقول: هذا التّفّاح من حديقة بيتي، وهذا البرتقال والتوت من حديقة المطعم، وهذا الجبن من مزرعة صديقي سيلفستر. كان يشير بإصبعه لكل قطعة من الفاكهة، حتّى إلى العنب في قاع الإناء. نظر بيكيت بخيبة أمل إلى إناء الفواكه، فهو لا يرغب في ذلك كله، بل ما يشتهيه هو السمكة التي يطبخها المرابط منذ نصف ساعة تقريباً. رفع رأسه نحو باب المطبخ، فلمح المرابط يخرج وهو يكلّم أحد العاملين. بقي بيكيت على أبعد مسافة من فاكهة حديقة كارلوس ومزرعة سيلفستر، رغم أن تينيسي وجوني على الخصوص عَدَّاها من أطيب الفواكه. كان تينيسي يتناولها بالشوكة، وجوني بأصابعه الصغيرة المرتعشة، بل وكان يلتقط العنب من قاع الإناء.

رغم أن بيكيت لم يأكل شيئاً من الفاكهة، إلا أنه ظلّ يمسك بطرف المنديل، ويمسح شَفَتَيْه.

***

خُطوطٌ جديدة على جِلْد حمار الوحش
صورة بيكيت

اتّخذ كارلوس دوماً عادة عدم مجادلة زبائن أو فرض شيء عليهم. لذلك حين لاحظ أن بيكيت لم يمدّ يده إلى الفاكهة، اقترب منه وسأله:

- هل يريد السّيّد بيكيت شيئاً محدّداً. مطبخي رهن إشارتكَ.

إن لاحظ كارلوس علامة عدم الرضا على وجه الزبون، فإنه يعود إلى مطبخه، ليقدّم له شيئاً أفضل. تردّد بيكيت في أن يقول له ارفَعْ طبقَ الفاكهة من أمامي، وَضَعْ مكانه السمكة التي طبخها المرابط. سمع كارلوس ما تردّد في داخل بيكيت، فبدأ يزيح بعض الأطباق، ليُفرِغ المكان للسمكة. التحق المرابط بالمجموعة، عاد للجلوس على مقعده جنب تينيسي الذي رحّب به قائلاً:

- مكانكَ ينتظركَ.

لكن جوني سأله:

- الجوّ بارد جدّاً، يا محمّد، وأنتَ ترتدي هذا القميص الصّيفيّ.

أجاب محمّد وقد بدا أقصر من جذع شجرة مقطوعة:

- كلماتكم الطّيّبة تكسو جسمي بما هو أكثر دفئاً من اللباس، يا عزيزي جون.

ضحك تينيسي، وقال وهو يُصفِّق بيَدَيْه:

- برافو، أيّها الكنفوشيوسي العظيم.

شعر المرابط بحركة إصبع على كتفه، وحين التفت وجد نادلاً يحمل طبق السمك. مال قليلاً، ليفسح له، ويضعها أمامهم وسط المائدة. شكره بيكيت بالقول إنه يفعل ما في وسعه لإرضائهم. كان مقبض الإناء ساخناً جدّاً. أبعد بيكيت ذراعه حتّى لا يحترق، ورفع كأسه. أغلق كارلوس الباب المفضي إلى الحديقة بعدما لاحظ أن ريحاً بدأت تهزّ الأغصان. كان كارلوس تلك الليلة سعيداً بضيوفه الكُتّاب، إلى درجة أغاظت باقي الموجودين في المطعم. كان ينحني عليهم واحداً واحداً حتّى يكاد يلامس رأسه رؤوسهم، ليسألهم عن طلباتهم ورأيهم فيما يقدّمه لهم، وهل يريدون تغييراً لما هو موجود على قائمة الطعام؟ اعترض بيكيت على إغلاق الباب المفضي إلى الحديقة، رغم قناعته بأن الريح ستصيبه بنزلة برد، فقد كان في مواجهتها. جوني متعوّد على التّيّارات الهوائية، فقد قضى نصف حياته في بيت نوافذه متقابلة وتكون مفتوحة أغلب الوقت، هذا إضافة إلى أنه يظلّ يحلم بالنوافذ والأبواب المفتوحة. لكنه كان مندهشاً بالطريقة التي يحوم بها كارلوس حول بيكيت، دليل على اهتمام أكثر بهذا الكاتب الذي يظلّ صامتاً طوال الوقت، لكنه حين يسخر يكون لاذعاً. هكذا هم الناس الذين يجمعون بين المعرفة الواسعة والتشاؤم. لذلك كان يشعر تلك الليلة كأنه يخاطب أناساً بدون وجوه، كما يفعل شخص مستلقٍ أمام محلّل نَفْسي. لم يكن بمستطاع أحد أن يلومه عن انفصاله عنهم طوال العشاء. لكن تينيسي سأله:

- لماذا يحوم الناس حولكَ، يا بيكيت، هل يبتغون شيئاً محدّداً؟

أجابه بيكيت وهو يبتسم:

- مَنْ يحوم حولي؟ لم أر أحداً. باستثناء كارلوس الذي ظلّ يكلّمني وفي يده قائمة الطعام، لأنه لاحظ أنني أشرب دون أن أمدّ يدي لِمَا وضعه على مائدتنا. وذلك تطلّب منّي معاملة خاصّة.

ردّ تينيسي:

- هل نسيت الشّابّة الإسبانية التي جاءتْكَ وطلبتْ منكَ صورة، فيما طلب صديقها توقيعاً على ورقة صغيرة؟

ضحك بيكيت وقال وهو يتمايل في مكانه:

- لا تتوقّعْ أنهم قرؤوا لنا شيئاً. هؤلاء يريدون أن يقولوا لأصدقائهم في الغد إنهم التقوا بنا في المطعم. وقد يضفون أشياء لم تقع. إنّ أَحْسَنَنَا توجد له نصوص قصيرة مقتطعة في المقرّرات المدرسية.

بيكيت يتحدّث. هذا شخص صَقلَت ذاكرتَهُ ومخيّلَتَهُ أحداثٌ تاريخيةٌ عُظمى، خصوصاً الحروب. وأكبر درس تلقّاه وهو يشاهد دمار المُدُن وموت الناس هو: التضاؤل، اجتناب الفشل الحتمي، التظاهر بالجهل. نحن البشر مُجبرون على عيش ظروفنا، سواء عجبنا ذلك أو لم يعجبنا. ومهما كانت لنا بيوت وأصدقاء وحبيبات وراتب، فإن ثمّة شيئاً غائباً هو ما نظلّ نجري وراءه أو ننتظره في زاوية ما. قد لا يأتي مثل "غودو"، أو قد يأتي ونحن مَنْ يتخلّف عن المجيء للّقاء به في الموعد المحدّد.

حين عاد المرابط للجلوس، كان قد شرب كؤوساً عديدة، ودخّن عدّة سجائر، وأطلّ من نافذة المطبخ على الحديقة مرّات كثيرة، فعاد بشوشاً وخفيفاً مثل طائر عائد من سماء بعيدة إلى قبيلة الطيور المألوفة. التفت إليه بيكيت وقال:

- نودّ أن نشكركَ، يا محمّد، على هذه السمكة الطيّبة. ما اسمها؟ من أيّ ماء هي؟ كيف طبختَها؟ وأيّ شراب يناسبها؟ هل تستطيع أن تجيبني؟

تحدّث بيكيت بهدوء وبتثاقل وهو يحدِّق في وجه محمّد الذي يشبه كثيراً وجوه الإسبان في الجنوب. أمّا المرابط، فإنه كان معتاداً على هذه الأسئلة في بيت بولز، خصوصاً حين يلتقي أصدقاؤه بأصدقاء جين، المرأة التي ماتت وتركت أصدقاءها من كل العالم واللغات.

كان المرابط يميل إلى تبسيط الأشياء حتّى تبدو طبيعية للغرباء، فلحم السمك يصبح جاهزاً بعد نصف ساعة، أو أقلّ، على النار. والشراب الذي يناسبه هو كل شراب يُهضَم بسرعة، ويزداد طعمه لذّة حين يختلط بطَعْم تلك الملوحة الخفيفة الموجودة في السمك. هذا ما قاله المرابط جواباً على أسئلة بيكيت. وأضاف أنه في هذه الليلة بذل كل ما في وسعه، ليكون طبخه أجمل من أمهر طبّاخ يعمل في مطعم كارلوس. لكن الأمور لم تكن سهلة على غريب على مطبخ المطعم، حتّى تكون الأمور بالنسبة إليه عادية. لكن بيكيت أضاف سؤالاً آخر:

- منذ متى وأنتَ تطبخ؟

هذه إطلالة من بيكيت على حياة المرابط بمنهجية أخرى. ما الهدف من طرح هذا السؤال؟ وما فائدة معرفة أن المرابط بدأ الطبخ في هذه السنة أو تلك، في طنجة أو في أيّ بلد آخر؟ لكن المرابط ذكر موقفاً من الماضي، وقتها كان طفلاً واضطرّ لتهييء شيء لوالدته المريضة، كي تأكله قبل شرب الدواء. جلس قرب سريرها، وبدأت تُملي عليه كيفية طبخ لحم الدجاج بالخضر. ونصحتْه بأن يضع نصب عينَيْه مقدار الماء الذي ينبغي إضافته في كل مرّة.

شعر بيكيت، وبدرجة أقلّ جوني، ببرودة تسحق عظامه، خصوصاً مفاصله. نهض وتوجّه نحو الحمام لتنشيط الدورة الدّمويّة. لم يكن بولز يمنح أيّ اهتمام لما قاله المرابط، فهو يعرف تلك الأشياء وأكثر. بل عَدَّ أن من غير اللائق إثقال شخص بالأسئلة، لمجرّد أنه تطوّع لخدمة الآخرين. تنهّد جوني، ووضع يده على المائدة، ثمّ تناول بالشوكة والسّكّين قطعة من لحم السمكة وبعض الخضر لم تتجاوز شرائح من البطاطس والجزر والزيتون. ظلّ المرابط يراقب بلهفة كيف يأكل جوني ما طبخه. وفجأة رفع جوني رأسه وقال:

- شيء طيّب حقّاً ما طبختَهُ، يا محمّد. أنا حين أطبخ السمك، أحاول القيام بعمل كامل كأن الله يراقبني. ما إن أتحوّل إلى طبخ السمك حتّى أشعر بضعفي. أشعر كأن هناك مَنْ يراقبني من فوق. فأسعى إلى القيام بشيء يجلب لي الرضا.

كان واضحاً أن بولز يسعى إلى إخراس المرابط، هذا الحكّاء العجيب. فهو ما إن يبدأ حكاية لن تكون في نيّته إنهاؤها إلا حين يشعر بالملل يتسلّل إلى المستمعين، وفي الحالات السّيّئة، لا ينتبه إلى أن مَنْ يستمعون إليه بدؤوا يتثاءبون أو ينظرون إلى السقف أو إلى ساعاتهم. لقد حاول إسكاته وهو يجيب عن أسئلة بيكيت، وها هو الآن يستعدّ لإسكاته حين شرع في الحديث مع جوني.

كان المرابط يجيب بيكيت وجوني بالفرنسية، وبولز وتينيسي بالإنجليزية، ولو كان بينهم خوان غويتيسولو، لتفنّن في الحديث بالإسبانية، هذه اللغة التي أُتقن الحديث بها قبل الفرنسية والإنجليزية.

حين أنار كارلوس فوانيس إضافية، بدا وجه المرابط واضحاً أكثر. يتّخذ

حُمرة مثيرة كلّما أفرط في الشُّرب والضحك. انتبه إلى غياب بيكيت، فبحث عنه بعينَيْه في كل مكان في القاعة، فتبيّنه وسط ظلمة خفيفة وهو واقفٌ في الشُّرفة يدخّن. لحق به بولز الذي لم يغادر مكانه منذ بداية اللقاء.

كان بيكيت يظهر من وراء الزجاج طويل القامة، ومتردّداً في النزول إلى الحديقة والتسلّل بين الشجيرات. التحق به بولز بخطوات بطيئة. وهو جنبه متّكئاً على السياج الحديدي، عبّر له عن إعجابه بسير اللقاء وببساطته الساحرة. شكره بيكيت، وعبّر بدوره عن إعجابه بجمال المكان ولطف الليل في طنجة. حمل بولز في يده تفّاحة حمراء كبيرة في حجم يده. نظر بيكيت إلى التّفّاحة، ابتسم، ثمّ قال:

- التّفّاح الإسباني مثل التّفّاح الإيرلندي.

أجاب بولز:

- كارلوس يقول إنه تفّاح محليّ.

ردّ بيكيت وهو يسحب نَفَساً عميقاً من سيجارته، ورأسه مرفوع نحو الغيوم التي في السماء:

- لا أصدِّق، هذا تفّاح مستورَد من ضيعة إسبانية متخصّصة.

بقي بولز يقلّب قول بيكيت والتّفّاحة الحمراء في يده. كل شيء إسباني في طنجة. من التّفّاح الأحمر إلى لباس الرجال والنساء والأطفال. كادت الساعة تبلغ منتصف الليل. وحين يُنهي الساهرون أحاديثهم بالكلام عن التّفّاح معناه أن على السهرة أن تنتهي.

***

كيف جاءت فكرة دعوة بولز لأصدقائه؟ لماذا؟

أوّل مَن استغرب هذه الدّعوة هو تينيسي. فهو يعرف الحالة المزدحمة التي أصبحت عليها نَفْسية بول. كما يعرف وضعيته المادّيّة التي إن لم تكن سيّئة، فهي لم تعد كما كانت في السابق. ومَنْ يعرف هذه الحقيقة الجديدة سيلاحظ خُلُوّه تلك الليلة من الحماسة، لكنه كان مليئاً بالإخلاص. فما معنى الخلوّ من الحماسة والامتلاء بالإخلاص؟

فكّر تينيسي في خطّة سرّيّة. سيُكلّم جوني لأداء ثمن عشاء الليلة، يظنّ أنه لن يرفض. لكنه جوني سيسأله عن السّبب، وسيُهوِّل من الأمر. إضافة إلى أن بول سيرفض الأمر جُملة وتفصيلاً.

الناس لا يُدْعون إلى "كاسا دي إسبانيا" بل يذهبون إليها، ويسهرون، ويتحدّثون بأخفض الأصوات، وأعذبها. وحين يرتفع صوتٌ عالياً، ينزعج الناس، كما لو أنهم سمعوا فجأة صوت طبل.

الناس الذين قصّوا شعورهم آخر قصّة، ولبسوا أثواباً غرناطية أو صقلية، وفاضت كؤوسهم، فبدؤوا يتبادلون الأنخاب، لا يحبّون الأصوات العالية. هذا العقد المقدّس التزم به هؤلاء الكُتّاب، ضيوف بولز. تصرّفوا كما يتصرّف المتعاقدون. وعلى هذا الأساس ظلّوا على حالة رائعة من التواصل التي وصفتُها لكم في الصفحات أعلاه. لكنْ، تلاحظون أن تينيسي ظلّ يخفي أحزانه السّرّيّة التي يحتلّ فيها موت جين مركزاً هامّاً وثقيلاً. كان أحياناً يتظاهر بأنه متعب، وتارة أخرى بالشُّرود، ثمّ بالانشغال بأمور كثيرة تركها وراءه في أميركا. لم أجد شيئاً أقوله عنه، لأني لم أسمع منه أشياء كثيرة، كما أن حركاته كانت شبه غائبة. كان بين الفينة والأخرى يضحك، وفي غالبية الوقت، كان يدخّن ويشرب ويقول شيئاً بينه وبين بيكيت، ومَنْ

يراهما يظنّ أنهما يتبادلان شيئاً حميماً، لكني أنا الذي يعرف طبعهما جيّداً، أقول إن الأمر لا يتعدّى تبادل رأي في الشراب المقدّم لهم، أو في المطعم أو مجرّد نميمة أدبية. ويمكن التأكيد أيضاً أن ذلك الأمر كان يضايق جوني قليلاً، لكنه شخص متسامح تجاه هذا النوع من السلوك. وأضيف وأقول عنه إن مزاجه واستعداده العاطفي لا يقفان عند قشرة القلب الإنساني، وهو شيء لا مثيل له يستحيل أن يوجد عند تينيسي أو بيكيت أو بولز. لكنْ، يمكن إجمال القول في إنه كان على ما يُرام طيلة السهرة، رغم أنه إنسان قلق بطبعه، ظلّ يخوض تجربة تيهٍ قُصوى بحثاً عن المركز الدافئ. نظراته المليئة بالدهشة، والحزينة في غالب الأحيان، شبيهة بتلك الدهشة التي تكسو وجه شخص استوقفه شخص مجهول، ليسأله عن شيء، لم يسبق أن سمع به. لكن دهشته تلك هي من جانب آخر حرّيّة منحها لنفسه، وأقام فيها منذ شروق الشمس إلى غروبها، دون انقطاع. تلك الدهشة هي باب دخلت منه العديد من الأشياء إلى أعماق نفسه. أقول ذلك وأنا أعي بأنني أتفوّه بأكثر الأساليب سطحية.

لو تحدّث الكُتّاب الأربعة في الأدب، لكانت أصواتهم متّقدة، ولرأيت دُخّاناً كثيفاً يلفّ وجوههم. بقي على المائدة جوني وتينيسي والمرابط. مَنْ يراهم يظنّ أنهم الباقون من السهرة. صبّ تينيسي لنفسه كأساً من شراب "ماركيز دي كاسيريس". عاد بيكيت، وأخذ البيريه التي تركها فوق الكرسي. اعتقد جوني أنه جاء ليودّعهم، لكنه سرعان ما عاد إلى الشرفة، ووقف جنب بولز. حين اشتدّت الريح، انزوى بيكيت في زاوية الشرفة، والتحق به بولز. حين فتح بيكيت الباب دخل تيّار من الريح، فحرّك بقوّة لوحة معلّقة على الحائط، كما سُمع صوت تحرّك الستائر، وهي تصطدم بالزجاج. بدأ كارلوس يجول على الأبواب والنوافذ من أجل إحكام إغلاقها. لفّ بيكيت الشال حول عنقه، فظهر مثل أفعى، تُحكِم قبضتها بقوّة حول

عنقه النحيف. وضع بيكيت يده على كتف بولز وهو يُحدِّثه، وكأنه يقدّم له عرضاً مُعيّناً. التفت بولز، وابتسم، ثمّ تحدّث بكلام، لا يمكن سماعه من وراء الزجاج. لكن بيكيت كان قد طرح سؤالاً أثار إعجاب بولز:

- ما رأيكَ في أن أدعو مجموعة الليلة يوم بعد غد؟

ردّ بولز كأنه كان ينتظر السؤال:

- يوم بعد غد ستكونون في بيتي. لقد أخبرني تينيسي أن ويليام بوروغ سيصل غداً إلى طنجة، وأنه يريد زيارتي والاطمئنان عليّ بعد وفاة جين.

لم يصدر عن بيكيت أيّ تعليق بخصوص بوروغ. فقد جعلتْه الأُمسيّة مرحاً ومنشغل الذهن وسعيداً أكثر من أيّ وقت مضى، فتمنّى لو رافقته سوزان التي تحبُّ هذا النوع من السهر. فلو حضرتْ، لقامتْ وجالتْ في قاعات المطعم كلها، ستتفقّد كل شيء، من الحمّام إلى المطبخ إلى الشرفة والنوافذ واللوحات والستائر والفوانيس. تُعجبها الستائر الحمراء والبُنِّيَّة، وهي موجودة في "كاسا دي إسبانيا". سيُعجبها خشب الموائد والطاولات. ولا شكّ أنها كانت ستخوض في نقاش مع جوني حول مسرحيته "الستائر" التي أحبّتها كثيراً، لأنها تحدّثت عن العرب والمواجهة بين العرب ومستعمِريهم في الجزائر. بفضل هذه المسرحية، أحبّت سوزان أعمال جوني كلها. عاد بيكيت، ووضع يده على كَتِف بولز، ثمّ سأله:

- ألن يثير المرابط أيّ شجار هذه الليلة؟

أجاب بولز:

- المرابط يتحوّل إلى رماد حين يسكر، وإلى جمرة متوقّدة حين يحكي.

في النهاية سأله بيكيت عن حجم ما أنفقه في هذه الليلة، لكنه رفض الإجابة، وتشاغل عنه بمراقبة غصنٍ تحرّكه الريح.

بدأ المرابط يغنّي. غناؤه عبارة عن خليط من الجبلي المحلّيّ والإسباني. وهي في النهاية ليست أغانٍ، بل مجرّد إيقاعات إسبانية ومغربية تخرج من فمه دون ترتيب. لم يعد أحدٌ يهتمّ بما يقول. لقد شارفت السهرة على نهايتها. غادر كارلوس المطعم دون أن يودّعهم. وترك ورقة صغيرة لنائبه في صندوق الأداء، يُخبره بأن وجبة العشاء كانت على حسابه، وبأن لا يقبل أيّ مال من بولز أو غيره. ربمّا لهذا السبب، انسحب دون أن يقول لهم وداعاً. حين كان كارلوس يقول وداعاً لبولز وجين، يجيبه بولز بأنه يفضّل عبارة "إلى اللّقاء".

صنع تينيسي القوس، وبيكيت السهم، وجوني الرّمح، إلا أن بولز ظلّ هو الخبير في الرماية. ولا يمكن لأيّ أحد من هؤلاء أن يصبح خبيراً في مستوى خبرته مهما فعل. انسحب الجميع، كلّ إلى وجهته. لكنّ اثنَيْن منهم شقّا طريقاً واحداً: بولز والمرابط نحو البيت، لإتمام بقية الحكاية التي لم تنته بعدُ.

-II-

"كانت المسرحية الفاترة أحياناً، والمفعمة بالحزن أحياناً أخرى، تحكي قصّة القلب الذي كانت رسالته المرسَلَة بتوطئة مقفّاة، تتمثّل في أنّ الحبّ الذي لا يبني قاعدته على تفكير سليم يكون مصيره الإخفاق."

أيان ماك إيوان، الكفّارة.

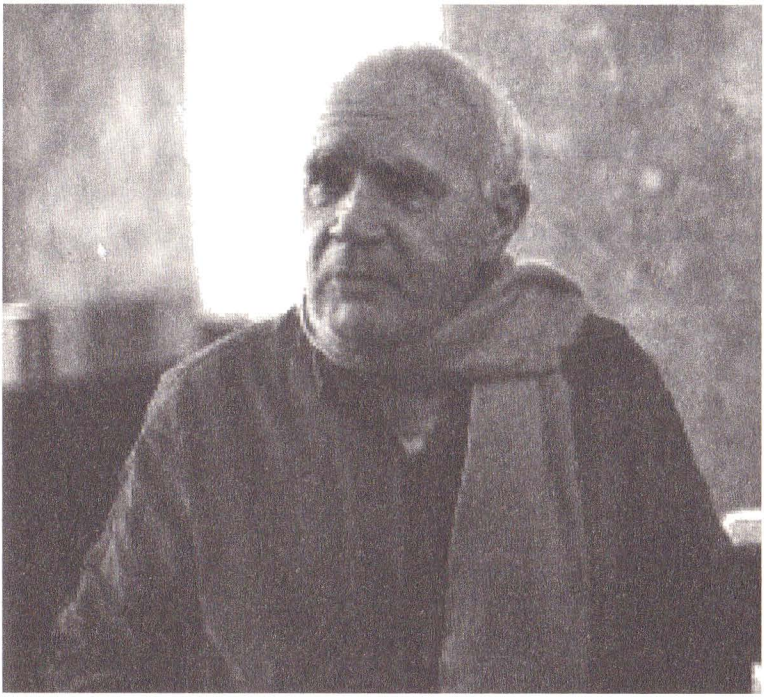

كان الخريف طويلاً هذه السنة. جاء إلى طنجة طالبٌ فرنسي، اسمه "هارديان لاروش" من أجل اللقاء بجوني وتينيسي. وصل هادريان إلى طنجة، قادماً من أميركا، يوم ١٣ نونبر (تشرين الثاني)، الذي يصادف عيد ميلاده. كان قد التقى بالفيلسوف جاك ديريدا بجامعة "دارتموش" الذي كان ضمن المشاركين في ندوة دولية في موضوع "النقد والنّظريّة". قدّم ديريدا عرضاً تحت عنوان "عيون اللغة". الجملة التي قالها هادريان لديريدا يومها: "فرنسي يلتقي بفرنسي على أرض غريبة" قالها لجوني.

سجّل هادريان الشّابّ أطروحة دكتوراه تحت إشراف ديريدا. في البداية، كان متردّداً بين جوني وأنطونان آرطو وتينيسي ويليامز قبل أن يستقرّ موضوعه على جوني، في بُعْدٍ شديد التعقيد: العلاقة التي تربط التخييل بالسياسة، انطلاقاً من سؤال طرحه فريدريك نيتشه: "ما صورة فنّان ينتقل إلى ضدّه؟" وهذا تأمّل فلسفي، جمالي وتاريخي عن العبور من العالم اللّغويّ إلى العالم الواقعي.

حين وصل إلى طنجة، خصّص اليوم الأوّل للبحث عن فندق جيّد للعمل والنوم والأكل. ألقى نظرات عديدة على فنادق، رشّحها له بعض الفرنسيّيْن الذين زاروا طنجة مرّات عديدة. كان يتلقّى أجوبة عديدة عن سؤال جودة الفنادق في طنجة. في منتصف يومه الأوّل، وجد فندقاً بدا مناسباً منذ النظرة الأولى، لكنه حين صعوده للطابق الثاني لتفقّد الغرفة

التي سيقيم فيها، تعثّر بالدّرج، فعاد من حيث أتى، ليبدأ رحلة بحث جديدة. عاد يتذكّر أحكام أصدقائه الفرنسيّيْن عن الفنادق التي رشّحوها له، فوجدها أحكاماً كاذبة، وفي أحسن الحالات سريعة، إذ لم ينتبهوا في تقييمهم لمجموعة من التفاصيل التي يهتمّ بها، بِعَدِّه طالب دكتوراه، يبحث في موضوع فلسفي عن كاتب يتطلّب البحث فيه أعماله الأدبية الكثير من التركيز والهدوء.

اكتشف هادريان أن جان جوني يمثّل له صورة الإنسان اليتيم، الأمر الذي وافق عليه ديريدا مع إضافة مسألة الاسم. فجوني الذي يبحث عنه يتيمٌ من ناحية الاسم. جوني هو نموذج الإنسان يتيم الاسم، فاقد للإرث، ويتيم حتّى من إنسانيته، إذنْ، هو قاطرة البحث في الإنسان.

وصف ديريدا عبور جوني مضيق جبل طارق بالقفزة. إن جوني يقفز إلى كل مكان يمكن القفز إليه. قفز إلى شيكاغو، الأردن، ستراسبوغ، شارتر. يلتقي بممثّلي الأحزاب، والحركات، بالناس الذين يمثّلون الأفكار. التقى بالألمان والفلسطينيّيْن. في كل مكان يرى الحرمان والاجتثاث. هناك القفزة الجيّدة، وهناك الرديئة. وهو يستمتع بهما معاً وبلهفة.

أقام هارديان في فندق "المونيريّا". بعد تناول أوّل عشاء بمطعم الفندق خرج للتّجوّل. شعر كأنه أغمض وفتح عينَيْه، فوجد نفسه في طنجة.

وهو أمام باب الفندق، تناهت إليه أنغام مكتومة من الملهى الليلي، حملتها إليه أمواج الهواء البحري. خرج طابور من السّيّاح رفقة ثلاثة مرافقين، ومشوا في اتّجاه البحر. بقي الطالب الجامعي، هادريان، يمشي وراءهم كأنه ضمن الوفد، حتّى عرف وجهة الكورنيش المضاءة بشكل جيّد. كان أغلب السّيّاح في أعمار تفوق السّتّين، ولم يرَ هادريان سوى شابَّتَيْن، رجّح

أنهما ألمانيّتان. أصبح مُترَعاً بالأفكار والمشاعر وروح المبادرة. اتّقدت غريزة الباحث الشّابّ. انطلق وحده نحو الشاطئ، كأنه في برّيّة أسطورية. راقب من بعيد كيف يمشي وفد السّيّاح مثل الدُّمى وراء مرافقيهم.

توجد أمام الشاطئ مطاعم وفنادق شاهقة، بداخلها حانات حديثة، يرتادها رجال يعتمرون قبّعات، ممّا يعطيهم مظهر رجال من البرتغال. الحدائق جميلة ومُعتنى بها أشدّ وأعمق ما تكون العناية. مشى الطالب الفرنسي الطموح ببطء. اختفى عن أنظاره وفد السّيّاح. اجتاحته رغبة التّمدّد فوق الرمال. كل شيء يحدث في ذهنه ببطء أيضاً، كأنه يفكّر على إيقاع سيره. تحسّس في جيبه الرسالة التي حملها من جاك ديريدا إلى جان جوني، يوصيه فيها بالعناية بهذا الفيلسوف الشّابّ. أخرجها ونظر إليها تحت أضواء الشارع. نزع نظّارته، وقرأ أسطرها الأولى، ثمّ أعاد النّظّارة إلى عينَيْه والرسالة إلى جيبه. يمكن لهذه الرسالة أن تجعله صاحب حظوة عند جوني، كما يمكن أن تجعله ضحية لما يمكن أن يعدّه مُستقبِلُها إملاءاتٍ فلسفية مضجرة. كتب ديريدا مطوّلاً عن العلاقة بين الأدب والسياسة، وعن نقد العنف، عن الهوية واللغة وحرّيّة التفكير والكتابة. لكن هادريان يتذكّر نصيحة أسداها له ديريدا:

- تحدّث معه عن الفلسطينيّيْن، إنه يحبّهم كثيراً. وحين يحبّ كاتبٌ شعباً ما مثل هذا الحبّ معناه أنه سيكتب عنهم كتاباً أو أكثر.

***

أوّل شعور سيطر على هادريان وهو يصل طنجة هو أنه لا يلج مكاناً فارغاً، بل عالماً ممتلئاً، سيجد مكانه فيه ببساطة. أوّل ما وصل إليها، شعر بنفسه متوتّر الأعصاب. ترك أغراضه في الفندق، ونزل تحت سماء رمادية

قبل أن يهطل المطر الغزير، وتهبّ الريح القوية. بعدها سقط المطر سيولاً في تلك الليلة. أخبر رجلاً في الخمسين من العمر كان في الاستقبال أنه يريد أن يستيقظ في الخامسة. نظر الرجل إلى صحيفة أمامه، ورفع رأسه نحو هادريان، ثمّ أخبره:

- يقولون إن المطر سيتوقّف في حوالي الرابعة صباحاً.

كل شيء مرّ من هذه الجملة بين هادريان ورجل الاستقبال، واسمه حسن. ستربطهما صداقة من تلك الصداقات التي تبدأ قوية من الوهلة الأولى. كان المغاربة في تلك الحقبة يربطون صداقات قوية وعفوية مع الأجانب الذين ربّما يكونون سبباً في هجرتهم إلى أوربا.

في سكون ليل طنجة، استوى هادريان في سريره، وبدأ يقرأ مسرحية جوني "الستائر". من اختصاص جوني إيقاظ مشاعر التعاطف مع البسطاء. دفن رأسه في الكتاب وهو يحلم باكتشاف أشياء جديدة. تعرّف بسرعة على تلك النبرة الإنسانية التي تتسرّب بسرعة إلى ذهن القارئ. وهو يقرأ حضر إلى ذهنه انشغالات الفيلسوف الإنساني "إيراسم". من هنا سيبدأ مشروع هادريان: المقارنة بين جوني و"إيراسم". ذلك يتطلّب صعوداً في الزمن، وغوصاً في تربة أصلية قديمة. بقي يقرأ وهو يتحكّم في أفكاره وتأويله وتخيّلاته. لا بدّ أن يكون في منأى عن الأفكار المسبّقة. نظر بثقة إلى الكلمات التي كان يشعر بها تنزل من السماء، وليست موجودة على أوراق كتاب. كان مستعدّاً لأن يبقى الليل كله على هذه الحال. شيئاً فشيئاً بدأ يتنازل للكلمات عن وجوده الضئيل أمامها. أصبحت أكثر قوّة منه، جميلة وشاعرية، وتصدر منها أصوات كالتي تُصدرها الأجراس. كل شخص يمكنه سماعها كما يسمعها هو الآن، صافية ومتضائلة مع مرور اللحظات. هذه الكلمات قد تكون بالنسبة إلى البعض مجرّد هجوم عابر

على الوحشية المتنامية في الكون. لكنْ، لو كانت مجرّد ذلك فقط، لَمَا استمرّت في الوجود منذ الزمن الذي كُتبت فيه إلى اليوم، وكأنها أفكار حديثة الصياغة. كلماته الجميلة تتحكّم في كل شيء من البنية إلى الإيحاء، وتذهب بالأفكار في الاتّجاهات كلها، كأنها ريح قوية تُخيف الأكواخ، وتكسر الأغصان اليانعة. دور هادريان الآن، وهو يقرؤها، أن يمنحها قوّة أكبر، وحرّيّة أكثر. مَنْ يراه يقرأ يتخيّل ريحاً وناراً. يجب قراءة جوني في أكثر الظروف مثالية، هذا على الأقلّ في فرنسا التي بدأت تعرف ما يقرب القرن معنى الاختلاف منذ أدركت أين تكمن الثروة والتّطوّر. لقد أصاب جوني ببراءته الأصلية. لقد استحوذ فطرياً على كل شيء في هادريان، وكأنه لم يقرأ كاتباً آخر غيره قبل الآن. والنصيحة الثانية التي أسداها له ديريدا: "لا تطرح عليه أسئلة محرجة."

ماذا كان يفعل جوني وهو يؤلّف المسرحية؟ كيف كان يعيش ويفكّر ويكتب؟ كم من يوم عاصف كُتبت فيه؟ هذا ما راج في رأس هادريان، قبل أن ينهض من أجل إغلاق النافذة التي ظلّت مفتوحة منذ ولوجه الغرفة. إن أشدّ ما ينبغي الاهتمام به هو عدم إصابته بنزلة برد أو عودة آلام الظَّهْر. هذه الاحتياطات ضرورية حين تنتقل إلى بلدان الجنوب في فصل الشتاء. وما على المرء سوى انتظار الأيّام المشمسة القادمة التي يُزهر فيها كل شيء، بما في ذلك القلوب.

لم يكن هارديان يعرف شيئاً عن جوني في أوّل الأمر، إلى أن حدّثهم أستاذ اللغة الفرنسية. كان يتحدّث عمّا أسماه "مشروع جان جوني". ظلّ الأستاذ ذو الوجه الذي تظهر منه سريرته الطّيّبة يُحدّثهم عنه حتّى أصبحوا يعرفون أدقّ المعرفة، ويتشوّقون لرؤيته واللقاء به. استسلم لهذا الشوق عدد كبير من التلاميذ، ذكوراً وإناثاً. لكنْ، كان هادريان وصديقته ماريان،

الشقراء النحيفة، من أكبر مَن استبدّت بهم رغبة كل ما كتب جوني. كانت ماريان تكتب القصص، وتهوى قراءة وجمع الكُتُب التي تحتوي على أسرار الكُتّاب وعالمهم الخاصّ منذ خُلقوا إلى أن تنتهي بهم رجلة الحياة. كانت تكتب قصصها في الليل، وفي الصباح تعطيها لهادريان، ليقرأها في مساء اليوم نفسه، وفي الصباح يعيدها إليها مع بعض الملاحظات، التي كانت تقوم ماريان بإعادة التّفكّر فيها في الصباح الباكر، حين تظهر خيوط قليلة من الشمس من وراء سحب كثيفة داكنة. حين تكون الشمس في قوّة ظهورها على العالم، تكون الأفكار أيضاً كذلك. حين تطلّ الشمس قوية ذلك هو موعد مراجعة ما كتبت وما كُتب عنكَ. تلك هي فكرة ماريان التي اقتبسها هادريان، وظلّ يمارسها إلى اليوم.

أدرك هادريان، منذ شرع في عمله على أعمال جون جوني، أن تغيُّراً كبيراً بدأ يسيطر عليه. وضع وجهه فوق الوسادة، وبقي يفكّر في كل ما قرأه عن جوني. أعاد النظر من جديد في صورة نادرة التُقطت لدجوني رفقة جان بول سارتر. ما الذي جمع بين كاتب دائم الارتحال، بوصلته روح ملتهبة ولا يرتدي إلا الألبسة الرثّة، وبين فيلسوف أنيق ومنظّم في الحياة والعمل والتفكير؟

فكّر في الاتّصال بماريان، لكنه بقي يفكّر في نمط الكلام الذي سيقوله لها. فهو حديث الوصول إلى طنجة، ولم يلتقِ أحداً لحدّ الساعة، إنه يعلم بوجود بيكيت وتينيسي في طنجة. ولم يذهب بعد لفندق "المنزه" للقاء بجوني. سيتّصل بها حين يلتقي أحداً من هؤلاء، ليكون الاتّصال إعلاناً واقعياً صادقاً عن بداية العمل الذي جاء من أجله. ستفرح ماريان كثيراً بالأمر، وستحاول الاتّصال بديريدا فور سماعها هذه الأخبار، فهي تحبّه كثيراً، وتسعى دوماً لخَلْق ذريعة للاتّصال به. وديريدا أيضاً يكن حُبّاً أبويّاً

وعلميّاً لماريان. لم يكن هادريان ينتقد هذا الحبّ ما دام كل شيء يقوله ديريدا لماريان يصل إليه بعد مروره من ذهنها، وهذا الشيء على كل حال لا يتجاوز النصائح العلمية ولوائح كُتُب، ينبغي قراءتها. تأتي ماريان بالنصائح واللوائح، وتطرحها أمامه، ليبدأ هو الفرز والبحث، ذلك أن نصيحة تُقال لأُنثى قد لا تُقال لذَكَر. إليكم الوضعية التي تنقل فيها ماريان لهادريان ما قاله ديريدا؛ يتقابلان، ثمّ تمسك يده، تفكّر، ثمّ تميل وهي ممدودة اليَدَيْن، كأنهما يستعدّان لأداء رقصة الفالس. ينحني هادريان نحوها انحناءة خفيفة، ثمّ تنقل يدها نحو وجهه، وتُمسكه كما مثلما نفعل حين نريد إطعام عصفور صغير. تتحسّس عظام وجهه ببطء، ثمّ تخبره بكمّ هائل من المعلومات والأخبار. تقرّب فمها من فمه دون أن تُقبّله، وتستمرّ الكلمات في التّدفّق. يحسّ هو بكلمات وأفكار جديدو كل الجدّة، كأنها ليست من هذا العالم. يفهم كل شيء قيل، ويعرف جزءاً ضئيلاً من عناوين الكُتُب. كل شيء يمكن الحصول عليه من المكتبة الوطنية أو من مكتبة الجامعة. لكنها أكّدت له أن عناوين المراجع تلك كلها موجودة في كُتُب ديريدا، المعروف عنه أنه لا يذكر لطَلَبَته سوى الكُتُب التي قرأها واعتمد عليها واستفاد منها. أفلت يده من بين يدها، وأمسك أنفها الدقيق وهو يقول: "يا جنِّيَّة، تستحقّين جائزة." المعلومات تصل إليه نظراً لأهمّيّة ما تحتويه وعظمة ووقار مصدرها.

بدأت طنجة تبرد كلّما تقدّم الليل. استنفد هارديان طاقة السهر كلها لديه. لكن جَسَدَه والطاقة الكامنة فيه لازالا تحت سيطرته. في صباح يوم الغد، سيعمل كل ما يستطيع للقاء بجوني، سيذهب للقاء به في فندقه قبل المغادرة. وهناك أيضاً برنامج للقاء بيكيت في حانة "باراد". كتب أحد الصّحفيّيْن قبل أسبوع إن بيكيت يتردّد على الحانة، ويستمتع بعزف "مدام برودي" على البيانو. يتمنّى بيكيت، وهو يستمع لذلك العزف الحالم، لو خرج الجميع من الحانة، وبقي وحده يُنصت ويتذكّر الخريف

الماضي الذي قضاه في مُدُن جبلية بفرنسا، تنقّل بينها وحيداً وبارعاً في كل شيء، رغم البرد الشديد. يستمع وينظر بأدب إلى وجه مدام برودي التي تعزف وهي مستقيمة الجلسة، دون تمايل ولا انحناءات كما يفعل جلّ عازفي البيانو. لا مجال هنا للآذان الفضولية. لا وجود لها على الإطلاق، إذا دخلت ماتت. بيكيت يستمع، تارة يبتسم وأخرى يهزّ رأسه هزات خفيفة. يتجوّل وحيداً في طنجة، زوجته أُصيبت بنزلة برد حادّة، وهو ليس له الحقّ في أن يمرض، كما أجاب ساخراً صاحب الحانة.

استيقظ في الصباح الباكر، ومباشرة بعد تناول وجبة الفطور، خرج للمشي ببطء على طول الشارع المؤدّي إلى فندق "المنزه". بقي يفكّر في الصيغة المناسبة لمفاتحة جوني في الموضوع. لأن الأمر يتطلّب أوّلاً التّعرّف عليه أكثر، قبل المرور إلى الحديث في الأمور العلمية. والأهمّ من ذلك كله عليه ألا يبدو في هيئة طالب مسكين، قطع البحر الأبيض المتوسّط لِلِّقاء بالكاتب الذي سيُنجز حوله أطروحة دكتوراه. هذا أمر ينبغي أن يتجاوزه بسرعة حتّى لا يستهلك مشاعره ووقته، وربّما قد يساهم حتّى في إفشال اللقاء الأوّل، وهذه كارثة لا يستطيع تحمّل نتائجها. كما أنه لا يستطيع الاتّصال بديريدا مجدّداً من أجل التّوسّط، وحتّى إن بقي ذلك هو حبل النجاة الأخير، فربّما قد لا يجد كيف يتّصل به، فهو دائم التّنقّل بين فرنسا وأميركا في هذه الأشهر الأخيرة.

تحسّس رسالة ديريدا في جيبه، ثمّ تابع السير وهو يستمتع بضوء طنجة الشّمسيّ الذي كثيراً ما امتدحه ماتيس.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً حين وصل هادريان إلى الفندق. توجّه إلى مكتب الاستقبال، وسأل عن السّيّد جوني. فأشار موظّف الفندق بإصبعه إلى رجل يجلس في قاعة فسيحة:

- السّيّد جوني؟ إنه جالس هناك.

مشى هادريان ببطء نحوه. حين اقتربت خطواته من سمع جوني، لم يرفع هذا الأخير رأسه، دليل على أنه لا ينتظر أحداً. كلّم هادريان نفسه:" هل أنا قادر إلى تحويل هذا الرجل الجالس والمطمئنّ إلى صديق؟"

- صباح الخير، سيّد جوني، أنا هادريان لاروش...

قبل أن يُكمِل هادريان تقديم نفسه بالطريقة التي هيَّأه بها طوال الليل وهذا الصباح، نهض جوني، ومدّ يده وهو يبتسم، فقال جملة أدخلت سروراً إلى قلب هادريان:

- مرحباً، هادريان، كَلَّمني عنكَ جاك ديريدا قبل شهر.

لا داعي، إذنْ، لإخراج الورقة. صحيح ما قاله جاك عنه:"إن جوني يميّز بين الوضيع والرفيع، لا تقلق." دعاه إلى الجلوس، وسأله عن شيء يشربه. تردّد هادريان، لكن جون ينادس بأعلى صوته: "إبراهيم". وما هي إلا دقيقة حتّى جاء إبراهيم وفي يده كأسان من الشاي المغربي. بقي جوني صامتاً وهو ينظر إلى سقف الفندق، وفي يده كأس الشاي.

يُشاع في فرنسا أن جوني كلّما ازداد سنّه وشهرته يصبح غامضاً شيئاً ما. لم يصدر هذا الحكم جانبول سارت أو جاك ديريدا أو رولان بارث، بل بعض أساتذة الأدب الفرنسي في الجامعة. وقد سمع هادريان من أستاذ متخصّص في رواية القرن التاسع عشر، أن غموض النّصّ الأدبي الفرنسي بدأ مع جان جوني. ليس غموض اللغة، بل غموض التصنيف. فباستثناء المسرح لا نعرف أين نضع جوني في الرواية؟ أم الشهادة؟ أم الروبورتاج؟ أم الشِّعْر؟

حاول هادريان التّخلّص من هذه الأحكام المسبّقة، فبادر بسؤاله:

- هل تقبل، سيّد جوني، أن نلتقي مرّة في الأسبوع من أجل استشارتكَ في العديد من القضايا التي توصّلتُ إليها وأنا أبحث في كُتُبكَ؟

وضع جوني كأس الشاي الساخن، وأجاب وهو يبتسم:

- نعم، ممكن جدًّاً، يسعدني ذلك. كم تنوي البقاء في طنجة؟

أجاب هادريان وهو يضع كأس الشاي مثلما فعل جوني بالضبط:

- شهراً كاملاً.

أضاف جوني بحَيْرة، وبصوت خافت:

- لكنْ، اعذرني، إن لم أعرف كيف أستجيب لأسئلتكَ.

ضحك هادريان، وتراجع قليلاً إلى الوراء:

- المهمّ هو ألا تبقى صامتاً أمام أسئلتي.

أجاب جوني بسرعة أكبر:

- لكنْ، عليكَ أحياناً أن تؤمن بأن كتاباً مّا لا مؤلّف له، رغم أن مؤلّفه يجلس جنبكَ. ذلك أمرٌ مفيد جدًّاً للبحث.

طرح هادريان سؤالاً، بدا أن جوني لم يكن ينتظره:

- هل حصل هذا مع جان بول سارتر؟

فكّر جوني مطوّلاً، وفي ذاكرته يعبر شريط ذكرياته مع سارتر:

- كان سارتر يخفي عنّي كتابه. لقد كان حرّاً جدّاً في تأليفه، وكان يحجب عنّي تحليلاته وتأويلاته اعتقاداً منه أنني سأرفضها جملة وتفصيلاً. في حين أنه ليس من حقّي التّدخّل إطلاقاً في عمل فيلسوف، يؤلّف كتاباً عنّي، أو إن شئتَ بشكل أدقّ: عن نفسه هو، وكيف يراني. لأن كتابه، في النهاية، هو تطبيقات لأفكاره الفلسفية على كلماتي وأفكاري.

ازدادت حماسة هادريان للحوار:

- لكنكما كنتُما تلتقيان.

شرب جوني القطرة الأخيرة من الشاي، ثمّ أجاب:

- نعم، كنّا نلتقي، وهناك صور كثيرة منشورة، أظهر فيها أنا وجوني في المقهى أو في الشارع. وهي صور منشورة، وأصبحت مشهورة، بل ومحطّ تعليقات كثيرة.

قاطعه هادريان:

- تعليقات؟ مثل ماذا؟

ضحك جوني وكلماته تخرج من بين حلقه المليء بالضحك:

- ما الذي يجمع بين أديب، لا يُسمَع عنه إلا كلّ سوء هو أنا، وبين فيلسوف لا يُسمَع عنه إلا كلّ خير هو سارتر.

ازدادت حماسة هادريان:

- وما رأيكَ أنتَ في هذا التعليق؟

مال جوني نحوه، ورفع صوته قليلاً:

- سارتر فيلسوف وأديب عظيم، تعرف لماذا؟

- لماذا؟

- لأنه كان يُزيّن أفكاري، ويجعل كلماتي أكثر جمالاً ممّا كانت عليه في كُتُبي. لم يشغل نفسه بالشياطين الموجودة داخل كُتُبي، بل بالملائكة التي تفرد جناحَيْها، فيشعر القارئ كما لو أنه داخل فردوس، وليس داخل جحيم. إن كُتُبي في النهاية مليئة بتجاربي الشخصية، وأفكار سارتر هي شخصية أيضاً. هذا اللقاء بين "خاصّ" جوني و"خاصّ" سارتر هو ما أعطى قوّة للتحليل، وجعل القُرّاء والباحثين في العالم كله يتمسّكون بأفكار سارتر عنّي. فأصبح القارئ في كل مكان ولغة وثقافة يتبنّى ما كتبه سارتر عن جوني، وما كتبه جوني عن نفسه، ولو لم يُولَد أو يسكن هذا القارئ في فرنسا.

أخرج هادريان من جيبه مذكّرة صغيرة، وبدأ يُسجّل ما قاله جوني في هذه اللحظة المشرقة. فقد شعر أن جوني يستخدم فكره العظيم وعباراته الدقيقة للتعبير عن فرحه. كان يتكلّم كأنه يكتب. كما أظهر أنه شديد التّمرّس على الحوارات الأدبية. حين يكون واضحاً فإنه يدعو محاوره إلى الانتقال إلى قضية أخرى، وحين يكون غامضاً، فهو بذلك يُوجِّه له دعوة، كي يحفر أكثر في الموضع نفسه.

جاء إبراهيم من تلقاء نفسه، وقدّم لهما كأسَيْن من الشاي. شكره جوني، والتفت إلى هادريان، ثمّ قال:

- هكذا هو المغربي، حين يقدّم لكَ الشاي، فهو يرحّب بكَ أشدّ ما يكون الترحيب. اشربْ، يا هادريان، إنه شاي طيّب.

ما كان من هادريان إلا أن أعاد كرّاسته وقلمه إلى جيبه حتّى لا يُثقِل على جوني في هذه الجلسة الأولى. ثمّ توجّه إليه بالقول:

- أشكركَ، سيّد جوني، على هذه الجلسة الممتعة، وعلى هذا الشاي اللذيذ. دعني أنصرف الآن، وسأعود إليكَ في نهاية الأسبوع.

- نعم، تفضّل. عندي لقاء هذا الصباح مع كاتب مغربي، اسمه محمّد شكري، هل تعرفه؟

- نعم، سمعتُ عنه من كاتب مغربي صديق لجاك ديريدا اسمه الطاهر بنجلون.

- لو ترغب في رؤيته، تعالَ معي.

- فرصة أخرى، سيّد جوني، ما زلتُ أشعر بتعب السفر. أشكركَ.

- كنتُ سعيداً بهذا اللقاء حقّاً. لو احتجتَ أيَّ شيء، اتَّصِلْ بي في الفندق.

نفّذ هادريان نصيحة ديريدا حرفيّاً: "لا تُجاملْه مجاملة ظاهرة أو تُمالِقْه مُمالقَة المشايع، ذلك أشدّ ما يكرهه جوني. ومن المحتمل ألا تراه مجدّداً. لم أرَ في حياتي شخصاً يكره ويحتقر المشايعين مثله."

وقد أفاد هادريان أيضاً من رأي آخر لأستاذ شابّ، كان يدرّسه مادّة الفكر والأدب الفرنسيَّيْن في الزمن الحديث، مفاده أن جوني، رغم كل ما قيل عنه، هو صاحب فضيلة. وقد كان يزوره كلّما كان بباريس، ولم يرَ منه يوماً نميمة، ولا ترديداً للأقوال الشائعة، ولا تقليداً للأساليب الشائعة. كما لم يسمع منه يوماً مدائح أو شائعات أو شكاوى. وليس هناك أشدّ وطئاً على نفسه من الاتّهامات والأكاذيب.

هذه الأشياء كلها، وأكثر، شعر بها هادريان، بل ورآها تشعّ من شخص جوني مثل الضوء اللّامع. مشى إلى باب الفندق وهو يشعر أنه تمكّن بنجاح من تطبيق القواعد التي يمكن أن تربط بين كاتب عظيم وقارئ وباحث شابّ، يملك مواهب جيّدة لفَهْم تلك القواعد وتطبيقها. وربمّا قد يعود هذا التطبيق الناجح إلى التناظر في الطِّباع والغرائز والمواهب. إلى درجة أنه يمكن لأحدهما أن يصبح هو الآخر.

عاد هادريان للسَّير في شوارع طنجة مغموراً بسعادة، رغب في نقلها إلى ماريان، التي ستنقلها فوراً إلى ديريدا. كما قام برَسْم خُطّة في ذهنه سيتمكّن بفضلها من التفريق في بحثه بين ما هو صائب وما هو خاطئ، بين ما هو ضروري وبين ما هو زائد في بحثه، سيبعثها حال الانتهاء منها إلى أستاذه ديريدا. سيظل هكذا كلّ يوم في طنجة، يبحث ويقلّب الحقائق والأفكار والجمل على الوجوه كلها حتّى ينتهي بحثه الذي التزم ديريدا بنشره لدى أفضل دار نشر في فرنسا، إن انتهى منه في الصيف القادم.

***

الفنادق أمكنة حيادية، لا يعرف الناس كم من الوقت سيقيمون فيها. لكنها تكفيهم لإنجاز مشاريعهم المستعجلة، ثمّ يعودن من حيث أتوا.

يُفضِّل بيكيت الغرفَ التي تطلّ على البحر أو على الأشجار في أرصفة الشارع. وفي الصباح الباكر، ينزل للتّجوّل على الرصيف، وإذا كان الجوّ ماطراً، يحمل معه مطريّته السوداء. تتناسل الأفكار في رأسه وهو يمشي. يصادف الناس على طول الشارع، يمشون مثله، ويفكّرون مثلما يفكّر. قائمة الأفكار في رأسه تتّسع كلّما طالت إقامته في طنجة، وقائمة الذكريات تتضاءل. ينظر في وجوه الناس الفقراء الذين يمرّون أمامه، يقرأ الأفكار

الغامضة والمشاعر الكثيفة. كانت له هيئة مُحلّلٍ نَفْسيٍّ. قال له إلياس كانيتي حين التقى به في مراكش منذ سَنَتَيْن إن المغاربة يظنّونه طبيباً بسبب النّظّارات وربطة العنق. والنّظّارات وربطة العنق تجعل الناس أيضاً في طنجة يعتقدون أن بيكيت يعمل طبيباً. النّظّارات والشكل وربطة العنق والوقار الظاهر يجعل من كل أوروبي طبيباً في نظر الناس. الأطبّاء أيضاً يجتنبون النظر في الوجوه، ويسيرون بطريقة مميّزة. مشية بيكيت على الرصيف تتّسم بالحذر. هناك حُفَرٌ كثيرةٌ، وقِطَعٌ من الرصيف مُقتلَعةٌ من مكانها، حين يجدها أمامه يدفعها نحو مكانها برأس مطريّته. ينظر الناس إليه مطوّلاً، كأنهم يريدون تخمين أفكاره. هذا النوع من التّصرّف راجع إلى كونهم يعيشون طوال الوقت وسط أزقّة ضيّقة، أغلب الوجوه فيها مألوفة. إن النحل داخل الخلية ينظر إلى بعضه طوال الوقت، ويصطدم طوال الوقت.

الناس يعانون من ارتفاع الرطوبة في الشتاء. تعوزهم وسائل التدفئة، فيلجؤون لوسائل كثيرة لتدفئة منازلهم، أشهرها أن يأتي أحدهم بالبنزين، ويصبّه في إناء حديدي صغير، يضعه في مركز الغرفة، ثمّ يرمي داخله عود ثقاب مشتعل، فتنتشر غيمة من نار وهواء دافئ في جوّ الغرفة. وعليه أن يكرّر هذه العملية على رأس كل نصف ساعة. وإذا لم يفعل تراه يلوذ بسريره، فيبدو في هيئة مريض اقتربت ساعة رحيله. ويمكن لهذه العملية أن تكون لها تفاصيل وخواتم غير متوقّعة، لا تدع الناس يفلتون من الموت. فإن كان عمر الواحد أربعة عقود يكون قد اجتاز أربعين سنة، ليصل إلى هذه اللحظة الدّراميّة، ينعطف فيها نحو وجهة أخرى، تجعله حاضراً، لكنْ، دون أن يُرى.

سيلتقي هادريان ببيكيت صُدفة في شارع يجتازه بيكيت كل صباح

نحو مقهى باريس. وجد هادريان أن التعامل مع صاحب "في انتظار غودو" شيء صعب. فهذا الرجل يبدو من ملامحه الصارمة أنه يؤدّي واجباته جادّاً وحذِراً. فكي يتوقّع أن يأخذ راحته معه في لقاء عابر.

لا شكّ أن هادريان سيشعر بالسّأم من الدراسة والبحث. ستأخذه طنجة أخذاً، وستصله أخبارٌ عن بولز وشكري وبيكيت وبوروغ وتينيسي والمرابط. لقد قرأ كُتُباً كثيرة في صباه تشير إلى هؤلاء. لكن حَيْرته تزداد اليوم كلّما فكّر في اللقاء بهم، فكيف سيُجيب إن يُسأل؟ كيف سيتكلّم وهو حائرٌ بينهم؟ كيف يتفوّه وهو يرى بصحبتهم طريقاً طويلاً يمتدّ، وأفكارٌ وتجارب كثيرة تزداد؟

إن بيكيت مُبالغٌ في الحياد، وتينيسي مُسرِفٌ في الأقوال، وشكري مُكثِرٌ في الكلام، وجوني عبقري في التّكهّن، وبوروغ صاحب قلب وجسم، يعيشان وحدة، والمرابط خبير في كل شيء. فكيف سيجتمع هادريان بالربيع والخريف معاً؟

حين يكون جالساً في غرفته بالفندق، ينهض ويبدأ يفكّر في المسافات التي ينبغي أن يجتازها للوصول إلى جوني، كما لو أن جوني كائن مقيم في الصحراء. ينبغي أيضاً الذهاب للبحث عن لغته التي تقيم أبعد منه في الصحراء اللانهائية نفسها.

الكلمات المكتوبة كلها من قبل، والتي كانت سوداء على ورقة بيضاء، اختفت الآن. لم تعد مقروءة ومفهومة كما من قبل. لم تعد موجودة، فلماذا اختفت، إذنْ؟ ما الذي أفزعها؟ هل لقاء الأمس بجوني غيَّر الأبجدية، وأضاع المعنى، الذي كان في الأصل شبه مفقود؟ هل وُلدَتْ معانٍ جديدة، عوَّضت المعاني الأولى، وخنقت مصيرها؟ هل يصحّ للمعاني أن تقتل

بعضها بهذا الصمت وبهذه الوحشية؟ هل قلق الفكر ينبثق فجأة من الزوايا المظلمة كلها؟ كيف يمكن أن تقول شيئاً تعرفه، وحين تقترب منه، تجد نفسكَ أمام ستائر سوداء مخيفة، تأتي لتُشوّه معالم الأشياء الواضحة؟

كان وجه جوني واضحاً، وكلماته تؤدّي المعنى بأفضل ما يمكن أن تقوم به الكلمات، لكن السّرّ العميق لذلك الوجه ولتلك الكلمات كان خَفيّاً ومُستعصيّاً. قال كلّ شيء لهادريان. وهادريان تلقّى القول كعُمق مليء بالمعنى. لكنْ، فجأة ظهرت علامات سوداء في القول، وضباب في المعنى. فلماذا تحدث مثل هذه الأمور؟ إن القول يخون المعنى، والمعنى يخون القول في تناوُب على دَوْر الخيانة، كما لو أنه فعل نبيل، تختلقه الأقوال والمعاني لتحصين النَّفْس. لكنْ، ضدّ مَنْ يا ترى؟

بقيت الأسئلة هكذا تصعد وتتفرّع في ذهن هادريان مثل سنبلة، وهو يسير على طول الكورنيش الذي كانت تتعثّر عليه خطواته منذ وصوله في الأيّام الأولى. كلّما مشى على الرصيف المستقيم كبرت السنبلة، وتفرّعت أكثر. لكن المعنى لا يبدو بعيد المنال، ما إن بقي هادريان يبحث عنه.

في مثل هذه الأمكنة، تهجم الأسئلة على الرؤوس. ومن غريب الأمور أن هذه الرؤوس تعقد الأمل على الأجوبة التي تظنّ أنها لن تتأخّر، ما دامت تلك الأسئلة، مثلها مثل الأجوبة، هي بناتها. تظلّ أصواتها تتردّد قادمة من الجهات جميعها، لكن الرؤوس لا تصدّها أو تُغلق أبوابها في وجهها، إن الأسئلةَ والأجوبةَ ضيوفٌ مُرحَّبٌ بهم في أيّ وقت أتت فيه، رغم كل ما يُحدِثه قدومها من ارتجاجات مُفاجِئة.

في هذه الظهيرة التي يسير هادريان تحت ضوئها اللّامع نحو البحر، وصل ويليام بوروغ إلى طنجة. كان يحمل بيده اليمنى حقيبة بُنِّيَّة متوسّطة

الحجم، وتُمسك يُسراه بيُمنى فتاته الصّينيّة يوي تشن. كان تبدو على يوي علامات الدهشة، ما هي، في الحقيقة، سوى نظرات ساهمة نحو السماء والبحر والسفينة التي كانت تشتغل فيها. نظرات الوداع الأخيرة. لم تكلّم أحداً بخصوص قرارها الذي اتّخذته دون إقناع من ويليام. قالت للعامل الذي كان يساعدها إنها ستنزل في طنجة مع الأميركي ويليام بوروغ، وتعود في الصباح. إذ إن السفينة سترسو في ميناء طنجة طيلة ليلَتَيْن. لم يعرف كيف يجيبها، لكنه أومأ لها برأسه، وقال مبتسماً وغامِزاً بالعين اليُمنى: "ليلتان سعيدتان، يا يوي". أمّا ويليام، فذكّرها وهو يضحك بأن تحمل معها عودَي أكل الطعام، فعادت بسرعة إلى المطعم، وأخذت عودَيْن بُنِّيَّيْن، لم يُستعملا بعد.

يمكن للصّينيّيْن أكل الطعام دون العودَيْن، لكنهما يمثّلان نزعة شكلية، لا يستطيعان التّخلّي عنها. كما أنها علامة عن استمرار المجتمع القديم في الحياة الحديثة لكل صيني. كل شيء تغيّر في المطاعم الصّينيّة إلا أعواد الأكل لم تتغيّر. مثلاً كانت المطاعم مقسّمة إلى غرف صغيرة، لكنها بدأت تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى أمكنة فسيحة وبسيطة، لا غرف فيها. بدأ الصّينيّون يرون أن أكل الطعام داخل غرف صغيرة بالمطاعم لا يليق إلا باللصوص.

بحكم مهنة يوي تشن، وعملها الكثير في المطاعم، في البرّ والبحر، فهي تحمل معها في حقيبتها رواية "الذَّوَّاقة" للكاتب الصّينيّ "لو وين فو"، وهي رواية، الطعام هو شخصيّتها الرئيسة. وبتأثير من هذه الرواية، أصبحت يوي تمتدح المطاعم الصغيرة الخالية من الغرف، عادَّة تغيير المطاعم الصّينيّة مظهراً آخر من مظاهر الثورة المستمرّة التي يقوم بها بلدها. ليس تغيير شكل المطاعم، بل حتّى كيفية التعامل بين الزبائن والعاملين. لقد تغيّر

كل شيء في هذا الصعيد الدّالّ. إنها قفزة عظيمة على الجميع تقديرها وتقدير الجهود التي بُذلَت من أجل تحقيقها.

بقي ويليام مُمسِكاً بيد يوي، إلى أن وقفت سيّارة أجرة، نقلتهما إلى فندق صغير بمنطقة "السوق الداخل". حين سألته يوي عن جودة المطاعم في المنطقة التي سيقيمان فيها، التفت نحوها، وأشار بيده إشارة تدلّ على وجود مطاعم كثيرة وجيّدة.

لا يعرف ويليام شيئاً محدّداً عن يوي. وكما ظهر من تفكيره السابق، والذي يمتدّ من التقائه بها إلى هذه اللحظة، فإنه لم يقمْ بشيء لكي يعرف هذا الشيء المحدّد. في حين هي قامت بعدّة خطوات، وطرحت عدّة أسئلة، وقرأت بين سطور كثيرة، وأجرت استيضاحات لا تُحصى، كي تعرف حكايته. وأهمّ شيء عرفته لحدّ الآن هو أن ويليام يحمل معه مبلغاً مهمّاً من المال، لكنه يعمل على إظهار العكس. لقد كانت طوال الوقت يتحسّس جيوبه، كما أنه حين أخرج محفظته، رأت أنها منتفخة بأوراق نَقْدِيَّة من عملات كثيرة. وقد ظلّ يبحث عن العملة المغربية قبل أن يُعيد المحفظة إلى جيب معطفه الدّاخليّ، وينقل يده إلى جيب سرواله الخلفي، ليخرج مرّة أخرى عملة مختلطة، كانت بينها أوراق مغربية.

وقد فسّرت يوي تصرّف ويليام بهذه الطريقة، وإظهاره لتلك المبالغ كلها أمامها، لأن يوي لا يظهر عليها أنها امرأة تريد أن تجرّد الرجل من المال. وويليام خبير بذلك النوع من النساء، لقد عرفهنّ في كل مكان، وتصرّف أمامهنّ بعناد، كي لا يأخذنَ شيئاً منه. فبسبب خجله وصمته، كان يظهر للنساء أنه من الرجال الذين يمكن أخذ أموالهم بسهولة.

علينا عدم نسيان أمر في غاية الأهمّيّة، وهو أن ويليام شخص مدمن

على الهيروين، وذلك يفرض عليه أن يكون معه المال باستمرار حتّى يمكنه شراء الجرعات اللازمة لتوازنه أو لانتشائه. هكذا عاش في نيويورك ومكسيكو، وهكذا عليه أن يعيش في أيّ مدينة أخرى. هذا إضافة إلى أنه، بصفته مدمناً، أصبح يتمتّع بقدرة، لا حدود لها على استيعاب الكحول. بل وإن حياته الاجتماعية، وبسبب الإدمان أيضاً، كانت تفيض بالعلاقات وبالأحاديث مع أناس يلتقي بهم للمرّة الأولى. وإن هذه الرفقة مع يوي تعود إلى هذا الجانب. وقد رأينا كيف أنه تحدّث أمامها بأسرار خاصّة جدّاً.

وجد ويليام ويوي أمامهما في باب الفندق رجلاً في منتصف العمر. تعرّف عليه بسرعة. وضع ويليام حقيبته على الأرض، وأفلت يد يوي، وتقدّم نحو الرجل، وهو يرسم ظلّ ابتسامة صغيرة. مدّ الرجل يده مرحّباً بهما. تحدّث معه بإنجليزية مفهومة عن مدّة الإقامة وسعر الغرفة لمدّة ثلاثة أشهر، ثمّ مدّ له مفتاح الغرفة. بدت علامات ارتياح على وجه ويليام الذي صعد الدرج بسرعة، فيما بقيت أنفاس يوي متلاحقة ومسموعة وراءه. سمعت صوت انفتاح باب الغرفة الخشبي، وارتطام الحقيبة بالأرضية. نادى ويليام بملء الصوت:

- أينكِ، يا يوي؟

كان فمه جافّاً، والصوت خرج بنبرة مختلفة حتّى ظنّت يوي أنه ليس صوته. وقبل أن يقوم بأيّ شيء آخر، من قبيل تفريغ الحقيبة وترتيب الملابس، والنظر إلى مستلزمات الحمّام، قبل ذلك كلّه، توجّهت يوي بهذا السؤال لويليام:

- هل أنتَ متأكّد من أنكَ ستقيم هنا لمدّة ثلاثة أشهر؟

اقترب ويليام أكثر من يوي، وقال:

- السوق الداخل مليء بالفنادق، يمكن أن أُغيِّره في أيّ لحظة. لكنْ، دعينا نُرتِّب أغراضنا، ونخرج للقيام بجولة في طنجة.

في الحقيقة، خطرت لويليام فكرة تغيير رأيه، فكّر في حمل حقيبته، والتّوجّه إلى فندق آخر، يقيمان فيه ليلتَيْن، وحين ترحل يوي يعود إلى فنادق السوق الداخل. أطلّت يوي من النافذة، وأخرجت يدها حين لاحظت سقوط المطر. قام ويليام بما قامت به نفسه، ثمّ تراجع وبدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. عادة ما يقوم بذلك من أجل تسريع الدورة الدّمويّة. أصبحت يوي أكثر تحمّساً منه للخروج إلى السوق الذي سمعت عنه الكثير من ويليام. تمدّد على السرير، وظهر كأنه يتابع نومه.

تنهّدتْ يوي، وتراجعتْ قليلاً، وبقيتْ تتأمّل هذا الانهيار المفاجئ الذي ظهر على ويليام. خرج من فمه كلام دون وعي منه:

- إذا أردتِ أن تقومي بجولة في "السوق الدّاخل"، فتفضّلي، أنا سأنام قليلاً، لقد باغتني التعب.

حينها نهضتْ يوي، وخرجتْ بسرعة، كأنها كانت تنتظر إعطاءها هذا الأمر. وما هي سوى عشر دقائق حتّى شُوهدت فتاة بكين تجلس في مقهى أسفل الفندق، وتحتسي الشاي وتدخّن وتستمتع بهذه المناظر الغريبة عنها؛ أشخاص يمرّون مسرعين، آخرون يُحدّقون دون معنى في وجوه الجالسين في المقهى، متسوّلون من الأعمار كلها، نساء ورجال وأطفال، درّاجات نارية وهوائية تمرّ كالبرق دون مراعاة الاكتظاظ الذي يسود داخل هذه الأزقّة الضّيّقة، بائع فواكه يحمل بضاعته على درّاجة. وفجأة تذكّرت أنها لم تطلب من ويليام إعطاءها عملة مغربية لأداء ثمن الشاي، لكن الأمر غير مقلق ما دامت أنها أسفل الفندق. كما أن إحساساً راودها

بنزول ويليام للبحث عنها. وفجأة ظهر أمامها واقفاً، يشتري علبة سجائر من المحلّ المقابل. نادت عليه: "ويليام، ويليام"، التفت نحوها، ولوّح بيده، ثمّ جاء إليها، وجلس على مائدتها.

لم تتحمّل يوي النظر إلى الطاولة مريعة التي أمامها، لكن مجيء ويليام جعلها تشعر بالاطمئنان. طلب شاياً بدوره، وبقي يدخّن ويشرح لها ألوان الحياة في طنجة وهي تستمع إليه بانتباه شديد دون أن تسأل، فكل ما تريد أن تسأل عنه يوضّحه لها ويليام، كأنه اطّلع على قائمة الأسئلة المختبئة في ذهنها. وحين وصل حديثهما إلى الأكل، سألها:

- المطعم المجاور للمقهى يقدِّم طبقاً شهيّاً، ستُحبّينه كثيراً.

التفتت نحوه وهي في غاية السرور:

- وما هذا الطبق؟

أجابها وهو يقوم بحركات بيده:

- لاحظتُ في بكين أنكم تعدّون أطعمة شهية بالقرع. هذا المطعم يقدّم وجبة بالقرع والدّجاج، كنتُ قد تناولتُها قبل سنوات في هذا المطعم رفقة كاتب مغربي، اسمه محمّد شكري.

لم يدرك ويليام أنه أمام فتاة صينية. فالصّينيّون يحبون تقديم شروح مطوّلة حول الأكل. كما أنهم بارعون جدّاً في استعراض موادّ كثيرة، تتكوّن من خضر ولحم، يمكن بواسطتها تهييء أطباق لانهائية. هنا تدخّلت يوي:

- هل تقصد أن المغاربة مثلنا أيضاً يُهيِّئون قرعاً مجوّفاً محشوّاً بلحم الدجاج؟

أجب ويليام بسرعة:

- أقصد أن المغاربة مثل الصّينيّيْن يعرفون أن الدجاج يناسب القرع، بغضِّ النظر عن طريقة الطبخ.

أدركت يوي أن ويليام لا يريد الاستمرار في حديث موضعه القرع والدجاج. صمتت وبقيت تتأمّل أصابعه النحيلة المرتجفة. غيّرت من وضعية جلوسها، وبقيت تمسح بنظرها المناظر الموجودة أمامها، والممتدّة من الأزقّة المتفرّعة إلى أقرب شخص يجلس معها في المقهى نفسه الذي تجلس فيه هي وويليام.

جاء النادل ليقوم بجولة حول الموائد والكراسي. كان يدخّن وهو شديد الاضطراب. اقترب من ويليام الذي نادى عليه بحركة من يده:

- قل لي، أنتَ، يا صاحب الرأس الكبير، كم أصبح لديكَ من أولاد الآن؟

اقترب النادل أكثر، واسمه عيسى:

- خمسة أطفال، يا سيّد ويليام.

- وكيف تُطعمهم؟

- رزقهم على الله، يا سيّد ويليام.

تحدّث عيسى باللهجة المغربية التي كان ويليام يفهمها إلى حدود معيّنة. أخرج ويليام ورقة نَقْدِيَّة من جيبه، ومدّها له، وأشار له بأن يحتفظ بالباقي.

شعرت يوي بقَدْر كبير من الشفقة تجاه عيسى. فهي امرأة متمرِّسة

في التعامل مع الناس، وتعرف جيّداً معنى أن يمنحكَ شخصٌ مّا بعض النقود مقابل خدمة قدّمتها له. ألقت نظرة على ويليام، وسألته:

- هل تُحبّ مساعدة الفقراء؟

تردّد ويليام قليلاً قبل أن يُجيب:

- لكنْ، هنا في طنجة، إذا أردتَ أن تساعد الفقراء، فستبقى بلا مال.

أكمل جملتَهُ، وبانفعال ظاهر سَوّى من رقبة معطفه الأسود القديم على الطراز الأميركي، ونهض وهو يقترح على يوي القيام بجولة في السوق الذي كان مزدحماً بالعربات والحمّالين والمتسوّلين، الذين تجمّع بعضهم أمام المقاهي والمطاعم. بدأ المشهد في السوق يتّخذ تلك الصورة القديمة التي يُفضّلها السّيّاح الأجانب، صورة تظهر فيها نظرات الفقراء وأسمالهم وطُرُقهم في السعي وراء لقمة العيش، وتُسمَع فيها أصواتهم الصادرة عن أجسامهم النحيلة التي أنهكتْها لسعات البرد القارس وأيّام الجوع الطويلة. فعدد من الناس لم يعد في إمكانهم الحصول على الطعام، فأصبحوا ينتشرون منذ ساعات الصباح الأولى على الشوارع والأزقّة الحيوية في المدينة، وفي أماكن "السوق الداخل"، الذي يتمكّن كل جائع، حين يدخله، من الحصول على لُقمة ودراهم يومه الطويل.

حلّت السعادة في قلب ويليام، وظهرت على محيّاه، فبدأ التّسكّع الكبير. ومع ذلك بقيت غيوم الحزن ممّا جعله يبقى ممدّداً على الفراش حتّى منتصف اليوم، ولا يُوقِظه إلا الصرير الناعم لباب الغرفة حين تعود يوي من جولتها. ليس معنى هذا أنها تغادر الغرفة دون علم منه، بل إنها تحاول إيقاظه، لكنه ينظر إليها بعينَيْن مغمضَتَيْن، ويجيبها: "اذهبي، وسألحق بكِ."

لقد أصبح ويليام بالنسبة إلى يوي رجل أسرار لا مثيل له. لا تستطيع الحديث معه إلا حين يكون مستغرقاً في تذوّق قهوته. وبعدها يتّفقان على القيام بجولة في أزقّة المدينة القديمة التي لا يكون أمامهما، من أجل الوصول إلى قلبها النابض، سوى عبور زقاق طويل، واختراق زحام على مشارف المدخل. عندها تمكّنت يوي من ملاحظة هامّة ويليام الممتدّة، إذ كان هو يعمد إلى مَدّ عنقه حتّى يتمكّن من مشاهدة الأزقّة التي أمامهما. بعيداً، بعيداً جدًّاً، فيما وراء الأزقّة كلها، تشعر يوي بالهواء وجمال الضوء الذي يتلألأ أمامها.

بقيت يوي تنظر إلى ويليام الذي كان يمشي وهو ينظر إلى رؤوس الناس أمامه. حين بدأا في الدّنوّ من قلب المدينة القديمة، شعرت يوي بصمت بليل رطب، كانت ساعة يدها الذّهبيّة تَعدُّ بصبر الوقتَ الجميل الذي تقضيه معها برجل الصدفة الأمريكي. كانت جدائلها السوداء تتدلّى على كتفَيْها، وكانت بين حين وآخر تنظر إلى ويليام الذي بدأ يُسرع الخطى، وتبتسم. بدأت تؤمن بسُمُوّ هذا الكائن الذي يمشي جنبها. حين يخترق النساء مثل هذا الإحساس يصبحنَ على استعداد للقَسَم بالموت، من أجل الرجل الذي جعلهنّ يشعرنَ بسُمُوّه.

بقيا يسيران وسط أزقّة ضيّقة صاعدة في صمت مهيمن على المكان، كأنهما يبحثان عن عشّ في أعلى شجرة. يوي ووليام. ويليام ويوي يبحثان عن شيء مفقود. التفت ويليام إلى يوي، وسألها:

- هل تستطيعين العودة وحدكِ إلى الفندق؟

- إنني أشعر كأنني في قاع بئر.

لا يتجاوز عرض الأزقّة متراً ونصف المتر. أنابيب طويلة مليئة بالبشر

والبيوت الصامتة ذات الأبواب التي تشبه الثقوب، والنوافذ المغلقة دائماً. عاد ويليام وقال ليوي:

- إذا استطعتِ العودة إلى الفندق بدوني، أُعيّنكِ ملكة على هذه الأزقّة الصامتة والصامدة منذ قرون.

- لماذا ملكة، يا سيّد ويليام؟ دعني أعود لسفينتي دون أن تقضي وقتكَ في طرح هذه الرهانات. أنا جئتُ رفقتكَ، لأستمتع معكَ في طنجة، وليس لترميني في متاهة أزقّتها. لماذا تريدني أن أرجع؟

- لا، يا يوي، أنا فقط أمزح. هل تعتقدين أني جادّ في ما أقول؟

ابتسمت يوي، وأمسكت بيد ويليام، وأسرعت تتقدّمه مثل طفلة، وكلها رغبة في اكتشاف هذه المدينة الصامتة.

***

على هذا النحو مرّ يومان بسرعة شديدة، يعود ويليام ويوي متأخّرَيْن للغرفة، بعد تناوُل الطعام في مطاعم شعبية، راقت كثيراً للفتاة الصّينيّة التي امتلأت مرحاً وسعادة رفقة ويليام. أحبّتْه واحترمتْه، ولم يعد لها أيّ ندم، كما في الليلة الأولى، عن مرافقتها له. بدأت تحسّ بوجوده أكثر حين زارا معاً، في صباح يوم عودتها إلى السفينة لإكمال الرحلة في المساء، بيتَ بول بولز، الذي صادف زيارة تينيسي وبيكيت له.

حين دعاها إلى زيارة صديق أمريكي وكاتب كبير اسمه بول بولز، أمسكت يوي بيد الحبيب الغالي، واندفعت أمامه لترى هذا الرجل الذي حدّثها عنه ويليام مرّات كثيرة. مشت أمامه بسرعة دون أن تتعثّر في الحفر، حين يجتازان الشوارع أو الأزقّة، أو في العشب حين يلجان الحدائق أو

المساحات الخضراء. وضعت مشطاً صغيراً على شكل مقبط في شَعْرها، وجمّلت نفسها، بحيث بدت عيناها الصّينيّتان في غاية الجمال. وضعت شريطاً أزرق حول رقبتها، وارتدت سروال جينز وحذاءً رياضيًّاً.

لم يقترح ويليام على يوي زيارة بولز في بيته، لو أنه لم يدرك شجاعتها وشوقها للقاء الناس. لَذَّ لها أن تسمع بهؤلاء الذين وردوا على لسانه، وهي لائحة طويلة من الأسماء: بول بولز، تينيسي ويليامز، صمويل بيكيت، محمّد شكري، ترومان كابوت، ألان غينتزبورغ، جاك كيرواك، محمّد المرابط ... لكن ويليام كان يكرّر كثيراً ثلاثة أسماء هي تينيسي ويليامز، بول بولز وألان غينزبورغ.

كانت تسمع حكاياتهم ومصائرهم وهي مندهشة، وهذا ما زاد من خوفها حين اقتربت من عتبة بيت بولز. بدأ قلبها يضرب بسرعة. كانت تحمل باقة ورد بين يَدَيْها. نقلتْها من يدٍ إلى يدٍ. خائفة وسعيدة جنب ويليام الذي دقّ جرس الباب، ورفع رأسه إلى النافذة في الطابق الأوّل. كان هادئاً، وبين حين وآخر يُدخِل يده في جيبه، ويحرّك قِطَعاً نَقْدِيَّة، بحيث يُسمَع صوتها المعدني. بقي يكرّر حركة يده داخل الجيب، إلى أن أطلّت امرأة مغربية من النافذة، وما هي إلا دقيقة حتّى كانت وراء الباب الذي فتحته ببطء، وهي تطلّ برأسها من جديد:

- مرحباً، سيّد بيل.

استغربت يوي كيف تُسمّي هذه المرأة ويليام باسم آخر هو بيل. أدرك ويليام سبب استغراب يوي، فالتفتَ إليها، ثمّ عاد وتحدّث إلى خادمة بولز:

- أهلاً، عائشة، كيف حالكِ وحال الأبناء والزوج؟ هل بول في البيت؟

- نعم، نعم، تفضّلا، سيّد بيل.

حين كرّرت المرأةُ الاسمَ، وحين لم يصحِّح ويليام الخطأ، أدركت يوي أن اسمه الحقيقي هو بيل. صعدوا الدرجَ ثلاثتُهم، تتقدّمهم عائشة، فكان بولز في انتظارهم، وهو يبتسم:

- ما الذي جاء بكَ، أيّها الوحش الأمريكي؟

- جئتُ أتذوّق خمرتكَ. أقدّم إليكَ صديقتي الصّينيّة يوي.

ضحك بولز وويليام وهما يعانقان بعضهما بحرارة. أبعد ويليام بولز عنه قليلاً، ونظر في عينَيْه بحزن، وقال:

- أُعزّيكَ في وفاة جين، يا بول. لا عليكَ، إننا في هذه الحياة ننتظر كل شيء. هل حزنتَ كثيراً؟ إن ذلك سيِّئ لصحّتكَ.

- حزنتُ على عذابها، وليس على موتها. لقد تعذّبتْ كثيراً بالأدوية والعلاجات المتكرّرة التي لم تؤتِ أيّ نتيجة.

جاءت عائشة، ومدَّت لبول أغلفة كبيرة وجرائد أخذها منها، ووضعها على طاولة على باب المطبخ. كان يرتدي ثياب البيت، ويحاول أن يمشي باستواء، لكن ويليام لاحظ ثقل مشيته. كان لا بدّ أن يضيف شيئاً ما لضَيْفَيْه. لكنه، مع ذلك، كان يفكّر في هذه الزيارة المفاجِئة لويليام رفقة فتاة صينية، تصغره بسنوات كثيرة. رحّب بهم بول في صالون الضيوف الصغير بكلمات قليلة. ها قد جاء ويليام من الطَّرَف الآخر من العالم، وجنبه فتاة هي الأخرى من أقصى الأطراف. تخلّصت يوي من حقيبة صغيرة، كانت تحملها على ظَهْرها، وهي مَحشوّة بقنّينة ماء ومحفظة نقود صغيرة وعلبة سجائر. وضعت الحقيبة جنبها، وبقيت تنظر إلى بول بولز.

لم تكن يوي تعرف حقّاً مَنْ هو بول بولز. وحين كلمها ويليام عنه، بقيت تشعر أنها لا تعرف الشيء الكثير عنه. وها هي الآن أمامه، تنظر إليه وتُحدِّثه، وتستمع لكلماته، وتنظر إلى حركاته، وتسمع أنفاسه المتتابعة. اجتاحتها رغبة في توجيه هذا السؤال له: مَنْ أنتَ، سيّد بول بولز؟ بالتأكيد إن هذا الرجل هو شيء آخر، يختلف قليلاً عمّا قاله عنه ويليام. لكنها تراجعت قليلاً عن طرح السؤال، لأنه من المحتمل أن يجيبها هكذا: أنا نفسي لا أعرف مَنْ أكون. وليس غريباً ألا يعرف مَنْ يكون. فَمَنْ منّا يعرف حقّاً مَنْ يكون؟ وسط زوبعة هذه الأفكار مالت يوي إلى الأمام، وخاطبت بول:

- أنا آسفة، سيّد بول، لكنْ، ينبغي أن أدعوكَ إلى عدم الحزن مطوّلاً لموت جين.

- إن حزني ليس عن موتها، لكن عن إلى أين ذهبت. إنه أمر مأساوي حقّاً ألا نعرف إلى أين يذهب موتانا. إنها مريضة أشدّ ما يكون المرض، ورحلت وحدها. إنها لا تستطيع البقاء وحيدة. هي في حاجة قُصوى إلى المساعدة. تصوّري أنها لا تستطيع شرب كأس من الماء. بل لا تستطيع حتّى قول: أريد كأساً من الماء، إن حلقي جافّ.

- أنا لا أعرف شيئاً عن مرضها وعن حالتها. لكن ويليام حدّثني عنها كثيراً، إلى درجة تولّدت لديّ رغبة في زيارة قبرها.

لاحظت يوي وويليام أن الحزن بدأ يعصف ببول. لقد تغيّر لون وجهه، وبدأ يحرّك يَدَيْه بطريقة غريبة، فأحياناً يضعهما على جبينه، وأحياناً أخرى يمسك بهما وجهه كاملاً. بقي يجول بنظره في الغرفة والممرّ، ينظر ويعيد النظر، كأنه ينظر إلى المكان الذي عاشت فيه جين، ثمّ مضت.

البيت عالم في ذاته. يجب طرح هذا السؤال: ما هو البيت؟ يا له

من سؤال! البيت عالم صغير يحتوينا، كوكبٌ صغير داخل عالم واسع. نحن لا نعرف ما هو بالضبط. لكننا نحيا داخله، ثمّ نمضي إلى عالم آخر، وقد نودّع بيتنا أو لا نودّعه.

جالت يوي هي الأخرى بعينَيْها في الأرجاء، وتوقفّت في الأماكن التي خطفت عينَي بول، وحين نظرت إلى ويليام وجدته يتأمّلها بغرابة. فتح بول غلاف كتاب كان جنبه. لم يكن مجرّد غلاف، بل هو بابٌ يُفضي إلى عالم كامل. أغلق بول الغلاف، أغلق الباب، ثمّ عاد وفتحه مرّة ثانية، ثمّ ثالثة، فأخرج بطاقة فيها منظر شاطئ من شواطئ الجنوب المغربي. كانت السماء في البطاقة صافية الزرقة فوق السقوف، وفي الأفق، تظهر غيوم قليلة متفرّقة ومتلاشية. وجنب جدارٍ طينيّ تجلس نساء وأطفال يلهون أمامهنّ. قلب بول البطاقة، وقرأ: أجمل تهانيَّ بمناسبة عيد ميلادكَ، يا بول. ترومان كابوت.

كان التعليق الوحيد لويليام:

- منذ متى لم ترَ ترومان، يا بول؟

- منذ أربع سنوات. التقيتُ به في باريس بمناسبة عرض مسرحية بكيت "نهاية اللعبة".

عاد بول ليتأمّل الغيوم القليلة في سماء القرية الجنوبية. إن شئنا الدّقّة، إنها بقايا غيوم سوداء ثقيلة اختفت، وتركت وراءها هذه الآثار البيضاء الشبيهة بشريط الدخان الذي تُخلّفه الطائرات وراءها.

عاد بول، وطرح السؤال على يوي، وهو يشير بإصبعه إلى البطاقة:

- ماذا ترين هنا، يا يوي؟

- أرى بيتاً طينيّاً ونساءً وأطفالاً.

- رَكِّزي في السماء.

- يمكن أن نتحدّث عن سماء صافية فوق قرية ساكنة.

تدخّل ويليام:

- لا يمكن تخيّل سهول الجنوب دون تلك السماء الصافية والغيوم الخفيفة المتلاشية.

قالت يوي وهي تتذكّر عنواناً لإحدى روايات بول، سبق أن ذكرها ويليام:

- نعم، إنها سماء واقية.

ابتسم بول، وقال:

- أشكركِ على هذه الإحالة اللطيفة. تلك المُدُن في الجنوب شبيهة بالمحرقة. والغيوم يحبّها الناس كثيراً.

أضافت يوي:

- في جنوب الصين، الناس يعدّون السماء التي بلا غيوم هي في حالة خطر شديد. لذلك فهم يؤمنون بأن الله خَلَقَ الغيوم، لتأتي في حالة إسعاف للسماء والأفق. الغيوم تُبقي السماء حَيّة على الدّوام.

مال ويليام إلى الأمام قليلاً، وهو مندهش من معرفة يوي بهذه الأمور الشّاعريّة الغامضة:

- نحن لا نستطيع معرفة السماء إلا بواسطة الغيوم.

جاء دور بول:

- كلّا، ليس هذا فقط. لولا تلك الغيوم لما التقط المصوّر هذه الصورة. إن الغيوم المتلاشية هي مركز الصور، ودلالتها العميقة. لذلك فهي، في نظره؛ ليست غيوماً، بل أثراً.

يوي:

- أوافقكَ، الغيمة صفة ثانوية، لكن الأثر صفة جوهرية على ما أعتقد. إنها أثر، وحقيقة فعلية لشيء أصلي: الغيمة.

ابتسم ويليام معجباً بقدرة يوي على الخوض في مسائل تأويلية مثل هذه:

- الصّينيّون لا يفقدون شاعريتهم وقدرتهم على التأويل، فيما أعتقد.

علّق بول:

- تتكلّم يوي، كما ألاحظ، لتجرّب أفكارها. ونحن حين نجرّب الأفكار، نرى أنها تتوالد بشكل غير متوقّع، والصّينيّون بارعون في ذلك.

ويليام بسرعة:

- لقد أزحنا السماء، والنساء، والأطفال، والبيوت الطّينيّة، وركّزنا على الغيوم المتلاشية الشبيهة بالأثر. لماذا؟

يوي:

- علينا التركيز على الشيء المتلاشي.

بول:

- إن وجود الغيمة المتلاشية يُدرَك بوضوح أكثر من أيّ شيء آخر موجود في الصورة. أكثر من النساء والأطفال والبيوت الواطئة.

ويليام:

- وعلى ذلك، فأنا لم أعد واثقاً من وجود ذلك كله. إنها "الغيمة الواقية". ههه.

يوي:

- كل ما نراه في الصورة هو نتيجة لتلك الغيمة. هذا ما أراد أن يقوله المصوّر.

بول:

- تعرفان لماذا؟ لأن الغيوم ماثلة بقوّة في لاشعورنا. ولذلك فنحن نراها تطغى على الموجودات كلها.

جاءت عائشة، ووضعت أمام ضيفَي بول مائدة صغيرة، ثمّ قامت بصَبّ الشاي. طلب ويليام كأس ويسكي. نظرت يوي إلى ساعتها اليدوية، هي من مقتنيات جولاتها في البحار والموانئ. نهضت ونظرت من النافذة باتّجاه الرصيف. تاركة بذلك المجال لبول وويليام كي يتحدّثا في أمور تخصّهما. وعندما التفتت رأت ويليام يمدّ لبول غلافاً صغيراً، يبدو أن داخل أوراقاً نَقْدِيَّة. ثمّ قال له:

- هذا نصف المبلغ، يا بول. اقبلْه منّي، وسأضيف النصف الآخر حين تتحسّن ظروفي.

ابتسم بول، ومدّ يده لأخذ الغلاف:

- نصف المبلغ قادم في الطريق. لا تقلقْ.

لم يفهم ما قصده بول بـ "قادم في الطريق"، لكنه لم يسأل. فقط استسلم لِلَذّة شعوره بأنه نجح في استرداد علاقته ببول التي تلاشت مثل الغيمة في البطاقة التي خاضوا في تأمّلها قبل قليل. ثمّ أضاف:

- نحن ضيوف الأرض، نبالغ في عبادة المال. إنه لا شيء. فبعد طول تفكّر ندرك أنه غيمة متلاشية. بول:

- لكنها غيمة واقية، يا بيل. ههه.

للمرّة الثانية تسمع يوي اسم بيل يُطلَق على شخص عرفته هي باسم ويليام. إنها الأسماء حين تتغيّر داخل ازدواجية متّفق عليها. استوت على مقعدها، بحيث أحسّت براحة أكثر. هي أيضاً، انطلاقاً من خلفيتها الصّينيّة، ترى أنه يمكن التّخلّي عن الأسماء التي أطلقها علينا آباؤنا. إنها تقبل بفكرة تغيير الأسماء أو إطلاق أسماء ثانية حين نضطرّ إلى ذلك، أو فقط حين يروقنا الأمر.

بسرعة نسي ويليام ما يدور من نقاش بينهم، فعاد إلى كأسه، فحملها، وصبّ لنفسه، ثمّ أشعل سيجارة، وسعل بقوّة حتّى احمرّ وجهه. نزع قبّعته، ووضعها جنبه، وتجرّع من الكأس. أحسّ بنفسه خفيفاً وسعيداً. من أين تأتي السعادة؟ إنها تكون غائبة، وفجأة تأتي من الجهات كلها، وتغمرنا وتُغيِّر لون وجوهنا، وتجعل ثيّابنا نظيفة، وحركاتنا رشيقة، وكلماتنا مرصّعة بالنجوم، وروائحنا طيّبة. لكنْ، من أين تأتي حتّى نراها قادمة، وترانا ننتظرها؟ كل شيء يمكن أن يحدث، وفي أيّ لحظة. في كل لحظة ينبثق شيء ما.

***

صورة نوتوهارا

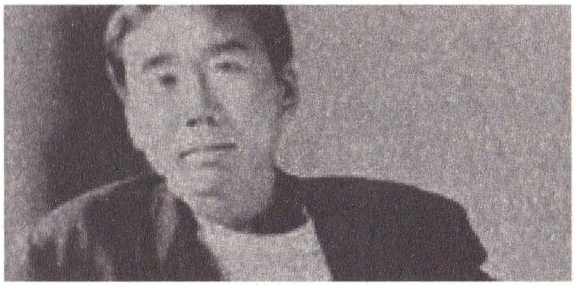

"السماء المرصّعة بالنجوم فوقي، والقانون الأخلاقي في داخل نفسي."

كانط

غادر هذا المجهول (بالنسبة إلى يوي) الذي اسمه ويليام، وهذه المجهولة (بالنسبة إلى ويليام) التي اسمها يوي بيت بول بولز. كانت الجلسة طويلة وممتعة، لكنْ، مرهقة أيضاً، لأن الحوار بينهم حول الصورة الموجودة في البطاقة البريدية كان سِحْرِيًّاً إلى حدٍّ ما. لقد غرقوا في فراغات، حاول كل واحدٍ منهم ملئها بأيّ شيء يملكه بين ثنايا عقله. لم تكن يوي وحدها مَنْ شعرت بقوّة الانغماس الجيّد داخل التفكير الأدبي والفنِّيِّ، بل بول وويليام أيضاً. لكن فراغات كثيرة امتلأت فعلاً حين ذهب

ويليام ويوي لمقهى نيغريسكو، والتقيا فيه بمحمّد شكري رفقة أستاذ ياباني كبير، اسمه نوبواكي نوتوهارا، الذي جاء إلى طنجة لِلِّقاء بمحمّد شكري قصد إتمام ترجمة روايته "الخبز الحافي". حاول ويليام اجتناب شكري، لكن يوي ركزّت نظرها على نوبواكي، فلأوّل مرّة، منذ نزولها من السفينة، ترى في طنجة ملامح مثل ملامحها. حينها لوّح شكري لهما، فتقدّما نحوهما، وجلسا على طاولتهما.

تساءل ويليام: تُرى لأيِّ هدف يجلس شكري ونوتوهارا معاً؟ خصوصاً بعد أن عرف أن هذا الياباني هو المستعرب الذائع الصيت، والذي عاشر العرب طيلة أربعين سنة. كان ويليام يريد أن يجلس هو ويوي وحدهما في طاولة مستقلّة، لكنه لم يرد أن تنشأ شكوكٌ حادّة في نفس شكري أو نوتوهارا. خصوصاً وأن شكري أصبح منذ مدّة كثير الظنون تجاه الأمريكيّيْن منذ أن اهتزّت علاقته ببول بولز. فأصبح مُلزَماً على مراوغة أيّ صدفة، يمكنها أن تجمعهما معاً.

كان شكري قد بدأ يبحث عن كلمات جديدة وأفكار مغايرة، من شأنها أن تصنع له صورة جديدة. أصبحت تتحرّك داخلة مشاعر كثيرة متضاربة، لم يعرفها من قبل. لا أستطيع شرح هذه المسألة المعقّدة، لكنني سأحاول تقديمها بالبساطة المطلوبة، مع بعض التّحفّظ على النتائج. ذلك لأنني لا أعرف شكري من قمّة الرّأس إلى أخمص القَدَمَيْن. وإنها ستكون معجزة، إذا قلتُ كلاماً عنه، وتبيّن لنا جميعاً أنه صحيح. وإنها ستكون بالنسبة إليّ لذّة تفوق اللّذّات كلها. وحتّى لا أُفسد هذا الأمر على نفسي، فإنني سأتكلّم عنه بحذر وبطء شديدَيْن.

كم كان شكري رائعاً وهو يجلس جنب صديقه ومترجمه الياباني. وكم

بدا متحضّراً وجذّاباً حين جلست يوي، وبدأ يوجّه إليها نظراته وكلماته الخفيفة والقوية في آنٍ. وكم بدا دبلوماسيًّاً حين يُعلِّق على كلام لويليام الذي كان يجلس بمظهر شخص مستعدّ للمغادرة في أيّ لحظة.

كان شكري يردّ على كلام ويليام بتعبير تكرّر كثيراً في الجلسة، وأثار ريبة ويليام: "لِمَ لا؟". لِمَ لا؟ كلمتان شائكتان وسطيّتان، لا تعنيان شيئاً بالتحديد. كان الحديث الذي جمع بين بول وويليام ويوي شيّقاً وواضحاً، لكن مائدة الكلام هذه التي تجمع شكري ونوتوهارا وويليام ويوي لم تسجّل كلاماً واضحاً وأفكاراً مفيدة.

لم تعرف يوي إلى أين تنظر. ولم يعرف ويليام كيف يتحدّث إلى نوتوهارا الصامت والمبتسم طوال الوقت. فبقيت يوي تتأمّل حيطان المقهى الناصعة البياض، وإلى السقف الأزرق زرقة السماء. لكنْ، دعوني أخبركم أن ما كان يهمّ نوتاهارا هو محمّد شكري المتحدّث دوماً، والمدخّن الشّره، والعديد من الأشياء التي يقوم بها. ينظر إليه ويفكّر في رواية "الخبز الحافي" الموجودة في حقيبته الجِلْدِيَّة السوداء. ومهما يكن من أمر، فإن ويليام ويوي مستعدّان للنهوض، ومغادرة المقهى إلى أمكنة أخرى، لا يعرفان أين تكون.

تحدّث شكري عن "الخبز الحافي" بطريقة شاعرية. فهو دوماً يستعمل أجمل الألفاظ لوصف هذه الرواية التي يوجد من خلالها. وجّه نوتاهارا ملاحظاتٍ كثيرة، همّت الرواية العربية. في هذه اللحظة، نهض ويليام ويوي، صافحا شكري ونوتاهارا، وانصرفا. ودّعهما شكري بابتسامة. كم كانت خرقاء تلك الابتسامة. وحين اجتازا باب المقهى، نظر شكري ونوتاهارا إلى بعضهما. ولم يجد شكري شيئاً يقوله غير هذا: "ويليام بوروغ صديقي القديم." ثمّ استأنفا حديثهما عن ترجمة "الخبز الحافي".

ألقى نوتوهارا نظرة على ساعته، فوجد أن الزمن مضى بسرعة، إنها السادسة مساء. بادر شكري بسؤاله:

- "الخبز الحافي" الآن بين يَدَيْكَ، بعد أن أسقطْنا جلّ الأسئلة التي يمكن أن تُعيق عملكَ.

نوتاهارا مبتسماً:

- نعم، لم يعد يمارس سيطرته عليّ كما في السابق.

شكري بخفّة:

- إلى أيّ حدّ كان يسيطر عليكَ؟ وإلى أيّ حدّ أنتَ الآن تسيطر عليه؟

وجّه نوتوهارا نظره نحو الخارج:

- لقد أصبحتُ مؤلّفاً مشاركاً، وليس مجرّد مترجم. وتلك آخر معركة يمكن أن ينتصر أو يُهزَم فيها المترجم.

شكري يسأل بحذر:

- ما هي الصعوبات التي يمكن أن تعترض المترجم وهو ينقل "الخبز الحافي"؟

نوتوهارا باختصار:

- أنا كنتُ أسمع في سيرتكَ الذّاتيّة أصواتاً كثيرة، كأنها آتية من العالم كله. لذلك أنا أُشبّه مثل هذه الكُتُب بال "آغورا" التي يُقال ويُسمَع فيها كلام كثير مختلف ومتنوّع، غامض وواضح، قريب وبعيد، صدى ورجع الصدى. وفي الحقيقة تلك هي خاصّيّة أدب "الذات العميقة" حسب تعبير بروست.

شكري بنبرة شبيهة بنبرة نوتوهارا المتفلسفة:

- أردتُ أن أصرخ: العالم شاخ. والصراخ يُسمَع قويًّاً في الساحات. لذلك فتشبيهكَ لكتابي بـ "آغورا" صحيح إلى حدّ بعيد. كنتُ أشعر أنني واقف في مركز ساحة كبيرة، والناس يحيطون بي، فجثوتُ على ركبَتَيّ، وصرختُ: العالم شاخ. وبعد كل صرخة أشعر بشيء قريب إلى حدّ ما من الإحساس الدّينيّ الذي يُسمّى "سلام النَّفْس". كنتُ أشعر أنني لن أصل أبداً إلى شاطئ الأمان، وأن مركبي الصغير المتهالك سيتحطّم قريباً. لذلك تلاحظ أن وتيرة الكتابة سريعة ومتهافتة. والأكثر تعذيباً أن صراخي كان يتردّد بقوّة أكبر داخل أرجاء نفسي. هذه هي نَفْسيّة "الخبز الحافي". ولم أدركها إلا بعد مرور سنوات من تأليفه.

نوتاهارا:

- هل قرأتَ سيرة المفكّر زكي نجيب محمود "سيرة نَفْس"؟ لقد أصاب بهذه التسمية. كل سيرة ذاتية هي حكي سيري عن النَّفْس.

شكري:

- نعم، قرأتُها، وأثارني عنوانها فقط، فقد اختاره بذكاء. إنها سيرة جذّابة جدًّاً.

نوتوهارا:

- ومع ذلك، فإنني أعدّ شخصيات سيرتكَ، بمَنْ فيها أنتَ، مخلوقات خيالية، لأحتفظ بحقّي في عدم تصديق أيّ شيء.

شكري ضاحكاً:

- أنا معجب برأيكَ رغم أنه مفرط في التفلسف. لكنْ، هناك شيء آخر، أنا وأنتَ في حاجة إلى معرفته، وهو أننا حين نُؤلّف الكُتُب نفعل ذلك بعنف شديد. ويمكن أن نضيف الإصرار أيضاً.

تحرّك نوتوهارا في مكانه، كأنه يريد أن ينهض. من خلال الفترة القصيرة التي عرفه فيها شكري، أدرك أنه رجل يحبّ التجوال. نادى شكري على النادل، وأدّى ثمن القهوة، واتّجها نحو الخارج.

يعرف نوتوهارا كيف يجتنب الثرثرة، أو على الأصحّ، كيف يجتنب الكلمات التي حين تغلّف الأفكار تصبح مجرّد ثرثرة. وهو يعلم أن المتحدّث حين يجتنب الثرثرة، يصبح مسيطراً دون منافس. كان، في البداية، يتجوّل مع شكري في الأمكنة التي تمّ ذِكْرها، ووصفها في "الخبز الحافي"، وبعد ذلك، أصبح يتجوّل فيها وحده. أمكنة كان يسيطر عليها الهدوء الشامل قبل أن تصبح فريسة لضجيج الأقدام والألسنة وحركة المرور في الشوارع. وفي مساء كل يوم يتناول العشاء مع شكري في مطعم "الدورادو"، هو يتحدّث عمّا ترجمه في الصباح وعن الأمكنة التي زارها في طنجة، وشكري ينتشي أمامه، ويبتسم، وهو يُنصِت لأناقة الكلمة والفكرة التي تخرج من فم نوتوهارا.

لم يكن نوتوهارا ميّالاً إلى مقابلة الناس، فقد التقى العديد منهم في حياته. ولولا خوفه من غضب شكري، لقال له ما كان يفكّر فيه باستمرار:"لو هؤلاء الناس يتركونني في حالي. لقد جئتُ هنا لغايَتَيْن: العمل والراحة". في تلك الأُمسيّة لم يكن شكري قد وصل إلى "الدورادو" بعد. لكن نوتوهارا وصل وطلب قنّينة ماء، ودخّن سيجارة، وجال بنظره في المطعم المليء بالزّوّار الأجانب. ظلّ يفكّر في إيجاد جوابٍ عن سؤال: لماذا يمتلئ المطعم فجأة بهذا الشكل، ويبقى فارغاً طيلة أيّام؟

حين وصل شكري جال بنظره وسط الزحام بحثاً عن نوتوهارا، فوجده جالساً في مائدة قريبة من الزاوية. ثمّ تدحرج نحو مثل كرة سَكْرَى. حين جلس جاء نادل المطعم مسرعاً، حينها كان شكري مُنشغِلاً بقراءة ملصق، يدعو إلى حضور حفلة موسيقية لفرقة أندلسية. لم يعره انتباهاً، وقال لنوتوهارا:

- سُحُبٌ سوداء ضخمة آتية من سهول طنجة الجنوبية. المدينة الآن تحت رحمة سُحُب ثقيلة.

قال نوتوهارا:

- شعرتُ بأن هناك زوبعة في الجوّ.

النادل اليهودي "كارلو" واقف ينتظر أن يطلبا شيئاً، لكن شكري بقي يتجاهله، وقال لصديقه الياباني:

- الطقس سيِّئ جدَّاً هذه السنة. طبقات السماء مخنوقة، والناس تضرّروا كثيراً. إني أحتفظ بذكريات من ماضي طنجة، لم تكن يوماً هكذا.

حين استدار "كارلو" متّجهاً نحو زبناء، نادوا عليه، بادره شكري بالطلب:

- يا كارلو، هاتِ زجاجة بيرة باردة.

التفت، وقال بكل أدب:

- حاضر، سيّد شكري.

تابع نوتوهارا متحدّثاً وهو ينظر من النافذة:

- انظر، لقد ظهرت النجوم في السماء، أين ذهبت السُّحُب الثقيلة؟

أجاب شكري وهو منشغِل بصَبِّ البيرة في الكأس الطويل الذي يشبه الأنبوب:

- ستُحجَب النجوم من جديد، السُّحُب السوداء هي قانون السماء هذه الليلة.

قال نوتوهارا وهو يُشعِل سيجارة:

- هذا القانون الذي في السماء أُحسُّه داخل نفسي. الأمر نفسه أستشعره تحت سماء طوكيو.

غيّر شكري الموضوع:

- لم تطلب شيئاً للأكل؟ أشعر بجوع فظيع.

أجاب نوتوهارا:

- أسلوب خدمتهم ثقيل جدًّاً. حتّى لو كنتُ في قاع البحر كان سيصلني ما طلبتُ. وطلبي في النهاية بسيط: سمك وسلطة.

أضاف شكري وهو يضحك:

- هذا المطعم الجميل فيه من الغرابة ما يُدهشني. فهو يُبدي لزبائنه مظاهرَ الاحترام التّقليديّة، لكنه لا يخدمهم بشكل جيّد.

شعر شكري بطَعْم سُكّريٍّ في البيرة، فقرّر تغييرها بالنبيذ الأحمر. حين طلبه بإيماءات من يده، جاء النادل بالطلب سريعاً. صَبَّ شكري كأساً له، وأخرى لنوتوهارا. حملها ببطء نحو شَفَتَيْه، هذا هو الطعم الذي يبحث عنه

من أجل نشوته. أحدثت الكأس الأولى تأثيراً غريباً. سمع نوتوهارا الأصوات الدّاخليّة لشكري، فوافقه الرأي بهزّة من رأسه. وهو يصبّ كأسَيْن، وضع النادل طبق السمكة الشّهيّ. نظر إليه نوتوهارا، وقال:

- لا تنسَ أنني في الخمسين من العمر، والسمك هو الطعام المناسب لي. إن جَسَدَنَا يصبح مشدوداً إلى قُطبَيْن، قطب الصّحّة القديمة، عافية الشباب التي يودِّعها يوماً بعد آخر، وقُطب الطاقة والرغبة الجديدة، وهو قطب الجَسَد المُنهَك.

رفع شكري كأسه وهو يضحك:

- مثل هذه الكأس تجعل الوتر مشدوداً بين القطبَيْن. أنا غامرتُ بجَسَدي كثيراً، لكن مغامراتي كانت بريئة. وكم من مرّة استمعتُ لاعتراضات جَسَدي الضئيل دون أن أعيرها انتباهاً.

كانت عينا نوتوهارا تُركِّزان على شَفَتَي شكري المُبلَّلَتَيْن بالنبيذ. كان يبدو كَمَنْ يقصّ حكاية. كان شديد الجدّيّة، لكنْ، لم يعرف لماذا شعر بأن شكري يقول أشياء غير مسرور بها هو نفسه. وسبب ذلك ربمّا هو جَسَده الذي يزداد نحولاً، وحركاته التي أصبحت أكثر توتّراً. علماً أن من عادات شكري أن يكون مرحاً حين يختلط بالأجانب.

لم يرَ نوتوهارا في حياته أغرب من هذا الكاتب الذي يجلس أمامه. ولإضفاء جوٍّ من العمل على لقائهما، قال له:

- منذ مدّة، لم يكن أحدنا بعيداً عن الآخر. لذلك أصبح كلّ واحدٍ منّا واضحاً للآخر.

تبادل شكري ونوتوهارا العديد من الرسائل منذ زمن طويل. فأصبح الكاتب والمترجم الياباني يعرف، عمليّاً وأدبيّاً، أشياء كثيرة عن الكاتب المغربي. ولمّا قرّر الشروع في ترجمة "الخبز الحافي" قدّم طلباً لوزارة الثقافة اليابانية، أرفقه بملفّ كامل عن مكانة "الخبز الحافي" في السَّرْد العربي الحديث. ولما تلقّى الموافقة، التي كانت سريعة، وبتمويل معقول، قرّر السفر إلى طنجة لِلِّقاء بشكري، والبدء في الترجمة. وحين التقى شكري عَدَّ اللقاء هدية صغيرة، منحتْها له هذه الحياة المتقلّبة بين تقديم الجيّد والسّيّئ. لذلك كان يعدّ أن لقاءه به هو لقاء مع هدية نادرة.

يقضي نوتوهارا الصباح، وفترة قصيرة بعد الظهر في غرفته بالفندق، يترجم "الخبز الحافي". وفي المساء، يلتقي شكري، ليقوما بجولة في بعض الأمكنة التي كان يعدّها شيئاً خاصّاً به. لكن شكري كان يشعر بطريقة غامضة أن المستعرب الياباني يعمل على تأليف شيء آخر غير الترجمة. وقد شعر شكري أوّل مرّة بهذا الأمر حين شرع يوجِّه له أسئلة لا علاقة لها بالترجمة، من قبيل: لماذا يشعر الفرد العربي بالاختناق؟ لماذا لا تعامل الحكومات العربية شعوبها بجدّيّة؟ لماذا تسخر منهم بهذه الطريقة البشعة؟ لماذا العرب مقتنعون إلى هذا الحدّ بأن الدِّينَ هو كل شيء؟ لماذا الشوارع العربية مليئة بالنظرات العدوانية؟ لماذا الفرد العربي مُغفّل إلى هذا الحدّ؟

لم يكن محمّد شكري يجد بما يردّ على هذه الأسئلة الاجتماعية والسّياسيّة. بل إن ما يسيئه هو إحساسه بكونه موضوعاً لأسئلة وملاحظات نوتوهارا، فهو عربي وتصدُق عليه تلك الملاحظات الاجتماعية والنَّفْسيَّة العميقة، باستثناء ما يتعلّق منها بالدِّين. ولاختصار المسافة إلى عقل نوتوهارا، طرح شكري عليه هذا السؤال المباشر:

- أنتَ، يا سيّد نوتوهارا، تطرح عليّ أسئلة كثيرة. التي تتعلّق بي وبكتابي، أجيب عنها. أمّا الأخرى، فأنا أستغرب لماذا تطرحها عليّ.

فأجابه نوتوهارا، وكأنه كان ينتظر هذه الصّدّ:

- نحن في اليابان نسمع عنكم الشيء الكثير من الغرب. فقرّرتُ أن أعرف كل شيء بطريقة مباشرة، من خلال قراءة أدبكم، ومعاشرتكم في مُدُنكم وبواديكم.

الساعة الثامنة، ثمّ التاسعة، ثمّ العاشرة، ومازال شكري ونوتوهارا في مطعم "الدورادو" يُقلّبان أفكارهما. بدا الزمن كما لو أنه لا يتحرّك. وكانت السُّحُب الثقيلة ما زالت تجثم على طنجة. وجد كل من شكري ونوتوهارا أنه حان الوقت للانتقال إلى شيء آخر في الحديث والأكل والشُّرب. شعرا بأن يومهما هذا هو يوم عطلة. نظر شكري إلى جليسه الياباني وقد ظهرت عليه علامات السُّكْر:

- إنها الحادية عشرة. لقد وُلدتُ ذاتَ يوم في مثل هذه الساعة. لذلك ظلّت هذه الساعة هي زمن انتشائي الدائم. كلّما دقّت هذه الساعة أشعر بشيء ما حلّ في عقلي. شيء مختلف وعظيم. أتغيّر تماماً عمّا كنتُ عليه في الساعات السابقة. كنتُ قبل قليل مشغولاً بأفكار سوداء، حدّثتُكَ عن السُّحُب السوداء والطقس السّيّئ. خفتُ على السفن في البحر، وعلى الناس في الشوارع والبيوت. وها أنا الآن، مع حلول الساعة الحادية عشرة، أعود إلى حماقاتي المألوفة. هل ستُودِّعني الآن؟ أرى أنكَ تعيد علبة سجائركَ إلى الجيب، وتُخرِج محفظة نقودكَ من أجل الأداء! لا تفعلْ ذلك، رجاء، يا نوتوهارا، أنتَ مَدعوٌّ عندي كلّما دقّت الحادية عشرة ليلاً، فرجاءً، اقبلْ دعوتي. عُدْ إلى مكانكَ، وضَعْ علبة سجائركَ على الطاولة، واشربْ معي كأساً أخرى. ما أحلاها ستكون.

الرباط - بكين ٢٠١٨.

من الكتاب:

اتّخذ كارلوس دوماً عادة عدم مجادلة زبائن أو فرض شيء عليهم. لذلك حين لاحظ أن بيكيت لم يمدّ يده إلى الفاكهة، اقترب منه وسأله:

- هل يريد السّيّد بيكيت شيئاً محدّداً. مطبخي رهن إشارتكَ.

إن لاحظ كارلوس علامة عدم الرضا على وجه الزبون، فإنه يعود إلى مطبخه، ليقدّم له شيئاً أفضل. تردّد بيكيت في أن يقول له ارفَعْ طبقَ الفاكهة من أمامي، وَضَعْ مكانه السمكة التي طبخها المرابط. سمع كارلوس ما تردّد في داخل بيكيت، فبدأ يزيح بعض الأطباق، ليُفرِغ المكان للسمكة. التحق المرابط بالمجموعة، عاد للجلوس على مقعده جنب تينيسي الذي رحّب به قائلاً:

- مكانكَ ينتظركَ.

لكن جوني سأله:

- الجوّ بارد جدًّاً، يا محمّد، وأنتَ ترتدي هذا القميص الصّيفيّ.

أجاب محمّد وقد بدا أقصر من جذع شجرة مقطوعة:

- كلماتكم الطّيّبة تكسو جسمي بما هو أكثر دفئاً من اللباس، يا عزيزي جون.

ضحك تينيسي، وقال وهو يُصفِّق بيَدَيْه:

- برافو، أيّها الكنفوشيوسي العظيم.

ترصد هذه الرواية أفعال شخصياتها داخل مدينة طنجة، من ويليام بوروغ، وجان جوني، ومحمد شكري، وتينيسي ويليامز، وبول بولز، وصمويل بيكيت، إلى محمد المرابط، لتكتشف عوالم تواصل حالة مستمرة من هدم وبناء نفسها دون معرفة كم تستمر هذه العملية الغاضبة.

حياتهم داخل فضاء طنجة، أبنيتها وحاناتها وبيوتها وفنادقها ومطاعمها، هو مناسبة لتقديم رؤية شعرية عن الحياة، مما يجعلها قريبة من الاستعارة أكثر من قربها إلى الواقعية. والدعوة هنا مفتوحة للقارئ كي يتقيّد بشرط التحليق بعيداً عن التعقيدات الواقعية، الخفية والظاهرة، التي تكون قد ربطته بهذه الشخصيات عن طريق قراءاته الأدبية السابقة لهم. فالقارئ سيجد هنا تنويعات إضافية، وخطوطاً جديدة أُضيفت على جلد حمار الوحش.

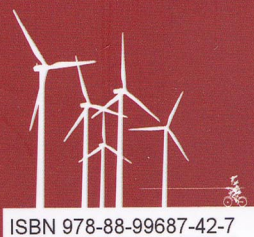

مكتبة نوميديا 107
Telegram@ Numidia_Library

ISBN 978-88-99687-42-7
02
9 788899 687427
المتوسط